الجهود التربوية لعلماء المسجد الحرام في عصر المماليك

إعداد

د / ماجد بن عبد الله خليل الحازمي

كلية التربية – جامعة أم القرى

الملخص:

هدفت الدراسة بيان الجهود التربوية لعلماء المسجد الحرام في عصر المماليك، و اعتمدت هذه الدراسة على المنهج التأريخي القائم على الاستقراء والتحليل ودراسة الروايات والأخبار المتعلقة بالجهود التربوية في المسجد الحرام في عصر المماليك؛ سواءً في كتب التأريخ والتراجم، والمصنفات والمخطوطات وكتب الآثار والأدب والتربية.. .. وجمعها وتحليلها ونقدها، ثمَّ إحالة كل مادة علمية تم الوقوف عليها إلى المبحث المتعلق بها وتوثيقها حسب قواعد المنهج العلمي التأريخي، وكان من نتائج البحث ما يلي: تنافس الملوك والسلاطين والأمراء عبر مر العصور، وتعاقب الأزمان، على عمارة بيت الله الحرام، وخدمة أهلها والمجاورين بها، وخدمة ضيوف الرحمن من الحجاج والمعتمرين والزوار، له أسباب دينية تتمثل في مكانة المسجد الحرام لكل مسلم، ولهذا كان هؤلاء الملوك والسلاطين والأمراء يتشرفون بخدمة بيت الله الحرام، عناية علماء المسجد الحرام في عصر المماليك بتعليم النساء، حيث شهد تعْلِمهن نشاطاً ملحوظاً وتنافس النساء في طلب العلم، خاصةً العلوم المتعلقة بالشريعة الإسلامية: كعلم الحديث، والفقه، واللغة، والسيرة. وظهر في تلك الفترة عالمات مكيات يُشد إليهنَّ الرحال لطلب العلم، وأخذ الإجازة في بعض العلوم منهن. ونبغ منهنَّ عالمات بارعات مكّنهنَّ علمهنَّ من التدريس داخل المسجد الحرام، ظهور طبقة من المجاورين الذين قدموا إلى المسجد الحرام بقصد طلب العلم، والتعبد لله تعالى في أفضل بقاع الدنيا، وإسهام هذه الطبقة من المجاورين في نشر العلوم الشرعية والأدبية والعلمية، في بلاد المسلمين، ونبوغ علماء من المجاورين أسهموا إلى وقتنا المعاصر في الجهود التربوية والعلمية، بسبب ما تركوه من إرثٍ حضاري، يتمثل في مصنفاتهم ومؤلفاتهم في مختلف فروع العلم والمعرفة، تعدد وتنوع وسائط التعليم في المسجد الحرام في عصر المماليك لتشمل التعليم في: الكتاتيب، والمسجد الحرام، ومنازل وبيوت الأمراء والوجهاء والعلماء، والأربطة، والمدارس، هذا التنوع والتعدد في وسائط التعليم أوجد حراكاً تربوياً وتعليمياً لجميع طبقات المجتمع المكي من الرجال والنساء، ومن الأغنياء والفقراء، ومن المقيمين بمكة المكرمة أو المجاورين لها، فكان المجتمع المكي عاصمة للعلم والثقافة والمعرفة في تلك الفترة، بُروُز ظاهرة التأليف والتصنيف بين العلماء حيث اعتنى العلماء بهذا الجانب المُشرق، فبسبب نشاط الحركة العلمية في مكة، ظهر نوابغ من العلماء وتفرغوا للتصنيف والتأليف في مختلف العلوم والمعارف.

The Educational Efforts of the Holy Mosque Scholars in the Mamluks Era

ABSTRACT:

The present study aimed at delineating the educational efforts of the Holy Mosque scholars during the era of Mamluks. The historical method was adopted based on induction, analysis and studying of the history and news related to the educational efforts in the Holy Mosque in the Mamluks era as such sources were history books, resources, codex, manuscript, and books of monuments, literature and education… The data were collected, analyzed, criticized and classified in relation to the related units; in addition, all the data were cited according to the rules of the scientific historical method. The results of the study revealed that the kings, sultans, and princes competed to develop the Holy Mosque to serve the visitors, worshipers, residents and pilgrims, as the Holy Mosque represents a

glorified symbol for all Muslims. The Mamluks kings and Sultans got great honor in serving the Holy Mosque and the scholars there paid great attention for educating woman, as such learning witnessed obvious activity during that era and there were competitions in seeking learning, especially the Islamic sciences, namely, the prophet Mohammad (peace be upon him) sayings, Jurisprudence (Fikh), language, and history. Such historical period witnessed great known female scholars and some of them were teaching inside the Holy Mosque and women came from different places seeking learning and worshiping Allah (Glory be to Him) in the best place on the Earth. Those people learnt in the Holy Mosque contributed in distributing the scientific, legitimate, and literature sciences in the Muslims countries. Furthermore, some of those scholars have contributions in the educational, scientific efforts because of what they produced like books, resources in all the fields of knowledge. With this in mind, the educational institutions in the Mamluks era were varied to include Quranic Schools (Katatib), the Holy Mosque, the homes of princes, kings, and scholars and schools. Such variation created educational and learning development for all the family members living in Makah and the near places, as Makah was the capital of culture and knowledge during this era. In addition, the phenomena of composing, editing and classifying among scholars were spread and many great figures in all the fields of knowledge were due to such development.

مقدمة البحث:

للمسجد الحرام أهمية دينية كبرى لدى المسلمين في أرجاء الأرض فهو أول بيت وضع للناس، ومقصدهم للحج منذ القِدم، نزلت في فضله آيات بينات، ووردت فيه أحاديث صحيحة تؤكد مكانته ومنزلته. كما أنَّ للمسجد الحرام أهمية تاريخية لوقوعه على طريق قوافل التجارة القديمة من الشمال إلى الجنوب وبالعكس، ولقرب مكة المكرمة من ميناء البحر الأحمر كذلك.

ولهذا حرص سلاطين الخلافة الإسلامية عبر تاريخ الإسلام منذ الخلافة الراشدة على العناية والاهتمام بالمسجد الحرام، ولما قامت دولة المماليك في مصر عام ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م تطلعت إلى بسط نفوذها على المسجد الحرام لأهميته الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية من جهة، ولإضفاء الصبغة الشرعية لدولة المماليك وتحسين صورتها من جهة أخرى.

واستطاعت دولة المماليك بسط هذه السيطرة بسبب ضعف الدولة الأموية، وتنازع أمراء مكة من الأشراف وتنافسهم على مقاليد الحكم، ولأطماع بعض الأشراف في تحقيق المكاسب المالية من خلال فرض الجبايات والضرائب على قوافل الحجاج، وعلى القوافل التجارية، ونجح المماليك في إحكام قبضتهم على مكة، وبذلك يكون عهداً جديداً قد بدأ في مكة ارتبطت فيها بمصر عاصمة دولة المماليك واستمرت هذه التبعية قرنين من الزمان.

وقد حدث بمكة خلال تلك الفترة بعض الاضطرابات السياسية بين فترة وأخرى، إلَّا أنَّ الأوضاع الدينية والاقتصادية، والأمنية، والاجتماعية، جعلت كثيراً من المسلمين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، يقصدون المسجد الحرام لأداء مناسك الحج والعمرة، ويجاورون المسجد الحرام رغبة في فضل مكة، وتقرباً لله بالطاعات.

وكان ممن جاور في مكة كبار علماء المسلمين خلال تلك الفترة، وساهم بناء سلاطين المماليك، وملوك وأمراء بعض الدول في ازدهار الحركة العلمية والثقافية، وتم الاهتمام بعمارة المسجد الحرام، وتأمين طريق الحج إلى مكة وحفرت الآبار، ووضع السبيل في كل مكان، وازدهر بناء المدارس، والأربطة، والمكتبات، وخزائن الكتب والبيمارستانات، وأوقفت الأوقاف عليها لصيانتها، والإنفاق عليها، وعلى شئونها.

وزاد الاهتمام بالعلماء وطلبة العلم، ونشطت الحركة العلمية في المسجد الحرام في عصر المماليك، وانتشرت الدروس العلمية في الكتاتيب، والمساجد، وبيوت العلماء، وقصور الأمراء، والمدارس والأربطة، وظهر نشاط علماء كل مذهب في إبراز مذهبهم الفقهي، فأنشئت المقامات الأربعة في المسجد الحرام، مقام الشافعية، ومقام الحنفية، ومقام المالكية، ومقام الحنابلة، وظهرت بعض المدارس الفكرية في تلك الفترة كالصوفية، والأشاعرة، والماتُرُيدِيَة، وغيرها.

وقام العلماء بواجبهم التربوي، في التأليف والتصنيف في مختلف العلوم الشرعية، والأدبية، والعلمية، وقام بعض العلماء بالوعظ والإرشاد، وتعليم الناس أمور دينهم. كما ازدهر في تلك الفترة تعليم المرأة مختلف أنواع العلوم والمعارف فظهر في مكة جيلٌ من العالمات المكيات اللواتي أسهمَّن في نشر العلم بين النساء، بل وأصبحن عالمات يُدرّسْن بالمسجد الحرام، وأقبل علماء كبار من الرجال على التعلم منهنَّ، أخذوا عنهنَّ العلم بالسند المتصل إلى رسول الله ﷺ وما هذا البحث إلَّا محاولة لتتبع الجهود التربوية لعلماء المسجد الحرام في عصر المماليك.

أهمية البحث:

تناول البحث الحركة التربوية في المسجد الحرام في عصر المماليك وهو بحق أحد عصور النهضة العلمية في الإسلام، وظهور عدد من العلماء المسلمين الذين تركوا إرثاً علمياً وجهوداً تربوية عبر مر العصور وحتى يومنا هذا، خصوصاً علماء المسجد الحرام، ولعل أهمية هذا البحث يمكن إبرازها في النقاط الرئيسة الآتية:

١. مكانة المسجد الحرام في نفوس المسلمين عموماً، والعلماء على وجه الخصوص، فهو يحتل مكانة سامية ومنزلة رفيعة في قلوب المؤمنين، فهو قبلة الدنيا، ومهوى أفئدة المسلمين، وإليه تحن القلوب وتشتاق، الصلاة فيه بمائة ألف صلاة، فيه تضاعف الحسنات، وتُعظم السيئات، أوّل بيت وُضع للناس.

٢. إنَّ الباحث لم يقف على بحث تربوي أصيل تناول الجهود التربوية في المسجد الحرام في عصر المماليك، على الرغم من كثرة العلماء الذين عاشوا في المسجد الحرام في هذه الفترة الزمنية من التاريخ التربوي الإسلامي، وكثرة المؤلفات والمصنفات في مختلف فروع العلم والمعرفة.

٣. توافر المصادر الأصيلة في المكتبة الإسلامية التي تناولت جهود العلماء في المسجد الحرام، ولعلماء أجلاء عاشوا في المسجد الحرام في هذه الفترة الزمنية، وكتبوا عن الحياة العلمية والحركة الثقافية التي كانت في عصر المماليك في هذه الفترة أمثال: ابن حجر العسقلاني، وابن فهد، والفاسي.. وغيرهم.

٤. محاولة الباحث إثبات حقيقة علمية تكْمُن في أن عصر المماليك شهد نهضة حضارية وعلمية، ونتاجاً فكرياً كبيراً، أثرى المكتبة الإسلامية بمئات المصنفات والمؤلفات في شتى فروع المعرفة، وأنَّ هذا العصر لم يكن عصر انحطاط أو ظلام كما حاول بعض المستشرقين إشاعته عن هذه الفترة الزمنية من تاريخ المسلمين.

٥. رغبة الباحث في إثراء المكتبة التربوية الإسلامية بموضوع تربوي أصيل لارتباطه بهذا المكان ولادةً ونشأةً وتعلماً وتعليماً، فلقد مَنَّ الله عليَّ أن دَرَسْتُ، ودَرَّسْتُ بالمسجد الحرام، فكان الرجاء أن أُسَجِلَ صفحات من تاريخ النهضة العلمية والجهود التربوية لعلماء المسجد الحرام.

٦. **أسئلة البحث:** يحاول البحث الإجابة عن السؤال الرئيس التالي: ما الجهود التربوية في المسجد الحرام في عصر المماليك؟.

ويتفرع عن هذا السؤال الأسئلة الفرعية التالية:

١. ما العوامل المؤثرة في إبراز الجهود التربوية في المسجد الحرام في عصر المماليك؟.

٢. ما معالم الجهود التربوية في المسجد الحرام في عصر المماليك؟.

٣. ما الوسائط التربوية والتعليمية المستخدمة في المسجد الحرام في عصر المماليك؟.

٤. ما الإسهامات الفكرية لعلماء المسجد الحرام في عصر المماليك؟.

٥. ما سُبل الاستفادة من الجهود التربوية لعلماء المسجد الحرام في عصر المماليك في الواقع المعاصر؟.

أهداف البحث: يسعى هذا البحث لتحقيق الأهداف التالية:

١. إبراز معالم الجهود التربوية في المسجد الحرام في عصر المماليك.

٢. التعرف على الإسهامات الفكرية لعلماء المسجد الحرام في عصر المماليك.

٣. الوصول إلى مقترحات يمكن من خلالها الاستفادة من الجهود التربوية في المسجد الحرام في عصر المماليك في الواقع المعاصر.

حدود البحث: هناك ثلاثة حدود للبحث هي:

١. **الحدود الزمانية:** دراسة الجهود التربوية في المسجد الحرام في عصر المماليك في الفترة من ٦٤٨هـ إلى ٩٢٣هـ.

٢. **الحدود المكانية:** دراسة الجهود التربوية في المسجد الحرام في عصر المماليك.

٣. **الحدود الموضوعية:** الجهود التربوية لعلماء المسجد الحرام في عصر المماليك.

منهج البحث:

استخدم البحث المنهج التاريخي والذي يعرف بأنه: " المنهج الذي يصف ويسجل ما مضى من وقائع وأحداث الماضي، ولا يقف عند مجرد الوصف، وإنما يدرس هذه الوقائع والأحداث، ويحللها ويفسرها على أسس منهجية علمية دقيقة؛ بقصد التوصل إلى حقائق وتعميمات لا تساعد على فهم الماضي فحسب، وإنما تساعدنا على فهم الحاضر والتنبؤ بالمستقبل"([1]).

وذلك لمعرفة الجهود التربوية المبذولة في المسجد الحرام في عصر المماليك، وتحليلها وتفسيرها، ثم التوصل إلى سُبل الاستفادة من تلك الجهود في الواقع المعاصر.

ومن ثَمَّ فقد اعتمدت هذه الدراسة على المنهج التاريخي القائم على الاستقراء والتحليل ودراسة الروايات والأخبار المتعلقة بالجهود التربوية في المسجد الحرام في عصر المماليك؛ سواءً في كتب التأريخ والتراجم، والمصنفات والمخطوطات وكتب الآثار والأدب والتربية.. .. وجمعها وتحليلها

([1])جابر عبد الحميد: مناهج البحث في التربية وعلم النفس، مكتبة الأنجلو المصرية، ص٩٦.

ونقدها، ثمَّ إحالة كل مادة علمية تم الوقوف عليها إلى المبحث المتعلق بها وتوثيقها حسب قواعد المنهج العلمي التاريخي.

مصطلحات البحث:

- **الجُهُودُ في اللغة:** مأخوذة من الجَهْدُ والجُهْدُ، أي: الطاقة، تقول: اجْهَد جَهْدَك؛ وقيل: الجَهْد المشقة والجُهْد الطاقة، و الجَهْدُ ما جَهَد الإنسان من مرض أو أمر شاق، فهو مجهود؛ قال: والجُهْد لغة بهذا المعنى.
- وفي حديث أُمِّ معبد: شاة خَلَّفها الجَهْد عن الغنم؛ قال ابن الأثير: قد تكرر لفظ الجَهْد والجُهْد في الحديث وهو بالفتح، المشقة، وقيل: هما لغتان في الوسع والطاقة، فأما في المشقة والغاية فالفتح لا غير.
- **التربية في اللغة:** مأخوذة من ربَّى يُربِّي، رَبٍّ، تَربيةً، فهو مُرَبٍّ، ربَّى الأب ابنه: هذّبه ونمّى قواه الجسمية والعقلية والخلقية كي تبلغ كمالها. وقيل: مشتقة من ربَبَ. ورب كل شيء: مالكه، وقيل: مأخوذة من النماء والزيادة.
- **التربية في الاصطلاح:** فهي عمل منسّق مقصود، يهدف إلى نقل العلوم والمعارف، وتكوين الإنسان الصالح والسعي به نحو طريق الكمال من جميع مجالات الحياة المختلفة: الدينية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، وغيرها.
- **المسجد الحرام:** جاء في كتاب: معالم مكة التاريخية والأثرية للبلادي: " المسجد الحرام، والكعبة المشرفة ليسا في حاجة إلى التعريف، فلا يكاد مسلم يبلغ أشده حتى يشُد الرحال إليهما، أو يظل يحِنُ إليهما.

أما عمارته، والطواف بالكعبة فهو قديم موغل في القدم، وأول خبر ثابت أن إبراهيم عليه السلام بنى البيت (الكعبة) بمساعدة ابنه إسماعيل عليه السلام، أما المسجد فكان عبارة عن صحن المطاف حول البيت، ثم بدئ بتوسعته، وأول من فعل ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأحاط عليه جداراً، ثم ظل يُعَمّر ويُوسّع حتى صار اليوم دائرة من طبقتين"([2]).

- **عصر المماليك**([3]): أصل كلمة المماليك مأخوذة من مملوك وهي اسم مفعول من (مَلَكَ)، وذكر المؤرخون أن منشأهم من بلاد (قفجان) شمالي آسيا، ولما غزا المغول تلك البلاد أسر أهلها، وهاجر كثير من سكان الولايات القزوينية والقوقازية من ديارهم، وتشتت قبائلهم في آسيا الصغرى.

وكانت تجارة الرقيق الأبيض والأسود في شدة انتشارها، فكان النخَّاسون يبيعون أحسن أبنائهم، وأجملهم وأقواهم لأمراء وأغنياء مصر، والشام، والجزيرة العربية، فيشب الفتى منهم، وقد نسي قومه، واندمج في سلك ولائهم أمثاله من المماليك، تحت رعاية مملوك منهم، أو أمير من أمراء العرب، ويقربونهم إليهم لشجاعتهم وذكائهم وولاءهم في خدمة أُمرائهم وأسيادهم.

وكانت نفوس بعض هؤلاء المماليك تتوق إلى المناصب الرفيعة كقيادة الجيش، والإمارة، وقد استعانت بهم الدولة الأيوبية في حروبها مع الفاطميين، فظهر منهم قادة شجعان أمثال الظاهر بيبرس البندقداري، وما لبثت أن ضعفت الدولة الأيوبية واستولى المماليك على الحكم من بعدهم، وكان من أبرز سلاطينهم الملك الصالح صلاح الدين والسلطان قلاوون، والسلطان محمد الناصر قلاوون، وبرقوق، وبرسباي، وقايتباي، وغيرهم.

([2])البلادي: معالم مكة التأريخية والأثرية، ص٢٧٠.

([3])السير وليم موير: تاريخ دولة المماليك في مصر، ص٤١. وانظر أنور زقلمة: المماليك في مصر، ص١٨.

وقد قسم المؤرخون دولة المماليك إلى: دولة المماليك البحرية أول الأسرة التركية (٦٤٨هـ – ٧٨٤هـ) وأول سلاطينها الظاهر بيبرس البندقداري.

وبعدها جاءت دولة المماليك البرجية أو الجركسية (٧٨٤هـ – ٩٢٣هـ) وأول سلاطينها الظاهر سيف الدين برقوق بن آنص. وبهذا تكون فترة حكم دولة المماليك من سنة ٦٤٨هـ إلى سنة ٩٢٣هـ.

- **التعريف الإجرائي للجهود التربوية:** بذل علماء المسجد الحرام أقصى ما يملكون من إمكانات حسية، أو معنوية في سبيل نشر العلم، بمختلف فنونه ومعارفه: الشرعية، والأدبية، والعلمية، وتعليم المقيمين والمجاورين بالمسجد الحرام من أهل مكة، أو من القادمين إليها للحج، والعمرة، والتجارة، وغير ذلك، ابتغاء الأجر من الله تعالى، وذلك خلال فترة حكم المماليك ٠ ٦٤٨هـ – ٩٢٣هـ).

الإطار النظري:

المبحث الأول: العوامل المؤثرة في إبراز الجهود التربوية لعلماء المسجد الحرام في عصر المماليك.

تُشير العديد من المصادر إلى أن هناك العديد من العوامل المؤثرة في إبراز الجهود التربوية لعلماء في المسجد الحرام منها ما يمكن القول بأنه عوامل إيجابية كانت سبباً في ازدهار الجهود التربوية للعلماء، ومنها عوامل سلبية أثرت على جهود العلماء التربوية في المسجد الحرام في عصر المماليك، وتفصيل ذلك على النحو الآتي:

أولاً: العوامل السياسية:

عندما قامت دولة المماليك عام ٦٤٨هـ كان يحكم مكة المكرمة الأشراف بعد أن انتزع الشريف حسن بن علي بن قتادة الحسني المكي إمارة مكة المكرمة من الملك المنصور عمر بن علي بن رسول مؤسس الدولة الرسولية في اليمن. وقد استمر الشريف حسن بن علي أميراً على مكة المكرمة حتى قتل سنة ٦٥١هـ. وقد كان قتله على يد أحد أبناء عمومته وهو الشريف جماز بن حسن بن قتادة، والذي طمع في ولاية حكم مكة.

" إلَّا أن الشريف جماز لم يستمر في إمارة مكة المكرمة، حيث أُجْبر على تركها في نفس العام؛ وذلك في آخر شهر ذي الحجة سنة ٦٥١هـ عندما زحف الشريف راجح بن قتادة بن إدريس المكي الحسني. والذي أيضاً لم يستمر في الحكم كثيراً، حيث نازعه ابنه غانم بن راجح بن إدريس فلم يقف الشريف راجح في وجه ابنه. بل ترك له إمارة مكة، وذلك في شهر ربيع الأول عام ٦٥٢هـ. ولكن لم تدم إمارته لمكة ثمانية شهور فقط، حيث انتزعها منه الشريف أبي نمي محمد بن حسن بن علي الذي ولي إمارة مكة المكرمة، وقد شاركه في إمارتها عمه إدريس بن قتادة.

وفي نفس العام هاجم مكة المكرمة جيش من اليمن حيث كان الشريف راجح بن إدريس وابنه غانم على علاقة قوية بحكام اليمن، وقد جمع الشريفان - محمد بن حسن وعمه إدريس بن قتادة – الجيوش وانتزعا إمارة مكة المكرمة بعد قتال عنيف قتل فيه العديد من الرجال، وذلك سنة ٦٥٣هـ "([4]).

وخطب الشريف أبو نمي محمد بن حسن لبيبرس البندقداري صاحب مصر حتى يضمن مساندته له. ولكن سرعان ما دارت الحروب بين الشريف محمد بن حسن وعمه إدريس بن قتادة، حيث كانا يضمران لبعضهما الغدر، ويطمع كل منهما في الانفراد بالسلطة والقضاء على الآخر.

([4])ابن فهد: إتحاف الورى، (٤ / ٨٢). وانظر السباعي: تاريخ مكة، (١ / ٢٤٠). الفاسي: العقد الثمين، (٣ / ١٧٥).

وقد كان هذا الخلاف إيذاناً بتدخل بيبرس في شئون مكة المكرمة والحجاز عموماً، وفرصةً للسيطرة على مكة لتوطيد السيطرة على مكة المكرمة، ولكي يضمن ولاء أشراف مكة جميعاً سعى إلى عقد الصلح بين أبي نمي محمد بن حسن وعمه إدريس بن قتادة اللذين اتفقا على طاعة بيبرس. " الذي ذهب بنفسه إلى مكة المكرمة في العام التالي لتأدية فريضة الحج، والاطمئنان على استقرار الأمور هناك، وعين الأمير شمس الدين مروان نائباً عنه بالحجاز ليضمن استقرار نفوذه بمكة المكرمة"([5])

هذا بين ما وصلت له الأوضاع السياسية في مكة وتأثرها بالأوضاع السياسية في عصر المماليك.

ولكن سرعان ما نشب الخلاف وثارت العداوة بين أبي نمي محمد بن حسن وعمه إدريس بن قتادة، وانتهت تلك العداوة بمقتل الشريف إدريس بن قتادة سنة ٦٦٩هـ على يد ابن أخيه الشريف محمد بن حسن.

واستمر حكم الشريف محمد بن حسن حتى وفاته سنة ٧٠١هـ. وتولى الحكم بعد وفاته أبنائه الأربعة وهم أبو المغيث وعطيفة، وحميضة، ورميثة، الذين سرعان ما بدأت الصراعات بينهم، ودام نزاعهم ستة وثلاثين عاماً منذ سنة ٧٠١هـ حتى سنة ٧٣٧هـ. مما كان سبباً في إرهاق أهل مكة المكرمة والتضييق على قاصديها من الحجاج والمعتمرين والعلماء وطلاب العلم. وتدهور حكم الأشراف الحسنيين بمكة.

واستمر تدخل الدولة المملوكية في الحياة السياسية لأمراء مكة عن طريق عزل بعض الأشراف المتنازعين وتولية آخرين بهدف استقرار مكة المكرمة، وذلك لما لمكة المكرمة من مكانة دينية في نفوس المسلمين. ولرغبة المماليك في إعادة الهدوء والاستقرار إلى بلاد الحجاز. ولهذا لجأ بعض هؤلاء الأشراف إلى فارس والعراق لتثبيت مركزهم في إمارة مكة المكرمة، واستمرت النزاعات والصراعات السياسية بين الأشراف طلباً للإمارة.

" مما حمل السلطان الناصر محمد قلاوون على بذل المزيد من التدخل في شئون الحجاز، وبعد وفاة السلطان قلاوون حاولت الدولة الرسولية باليمن التقرب إلى أشراف مكة المكرمة، رغبةً في توثيق صلتها بالإمارة. وكانت دوافعهم في ذلك نفس دوافع دولة المماليك، وهي الظفر بمكانة مكة المكرمة الدينية والسياسية في العالم الإسلامي. إلَّا أن محاولات الدولة الرسولية لم يكتب لها النجاح، وبقيت للمماليك اليد العليا في إدارة الحكم في مكة المكرمة "([6]).

وقد كان لهذه النزاعات والخلافات بين الأشراف الحسنيين على إمارة مكة المكرمة، وتدخل سلاطين دولة المماليك، وغيرهم ممن يطمعون في السيطرة على إدارة شئون الحرمين الشريفين إلى إلحاق الضرر بالحجاج والمعتمرين، والمجاورين من العلماء وطلاب العلم، وبالتجار وعامة أهل مكة.

وتُورد بعض المصادر التاريخية شواهد على بعض تلك الصراعات "سنة ٧٢٤هـ ثارت فتنة بين التكاررة والترك بالمسجد الحرام أُشهرت فيها السيوف داخل المسجد الحرام، وكان ملك التكرور موسى بن أبي بكر الأسود نازلاً بجانب رباط الخوزي، وأمر أصحابه بالكف عن القتال فكفوا عن ذلك "([7]).

([5])المقريزي: السلوك، (١ / ٥٨٠). وانظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، (٧ / ١٤٦).

([6])الفاسي: العقد الثمين، (٣ / ٣٩٥).

([7])ابن فهد: إتحاف الورى، (٣ / ٣٩٥). والتكاررة: نسبة إلى بلاد التكرور وهي: مَالّي بفتح الميم وألف بعدها لام مشددة مفخمة وياء مثناه، تقع في جنوب المغرب متصلة بالبحر المحيط. وهي شديدة الحر قليلة الأقوات وأهلها طوال في غاية السواد. انظر القلقشندي: صبح الأعشى، (٥ / ٢١٧).

وفي سنة ٧٤٣هـ وقعت فتنة بين الحجاج المصريين وأهل مكة قُتل فيها جماعة من الطرفين، عُرفت هذه السنة بالسنة المظلمة. وفي سنة ٨١٧هـ وقعت فتنة بين أمير الحاج المصري جقمق المؤيد وجماعة من القواد العمرة - اتباع الأشراف من بني الحسن – وحصل فيها قتال بينهما انتهكت فيها حرمة المسجد الحرام لما حصل فيها من القتال بالسلاح وإراقة الدماء فيها"([8]).

أمَّا سنة ٧٩٨هـ فقد كانت تمثل نقطة تحول في تاريخ إمارة مكة المكرمة في عصر المماليك فقد شهدت مكة استقراراً سياسياً خلال القرن التاسع وبداية القرن العاشر في عهد الشريف حسن بن عجلان " الذي تمكن من السيطرة على طوائف الأشراف والقادة الذين كانوا يثيرون الاضطرابات في إمارة مكة المكرمة، وأخضعهم لحكمه.

كما قام بتوسيع نطاق نفوذه السياسي في الحجاز، وكان من أهم أسباب نجاح الشريف حسن بن عجلان في ذلك تأييد دولة المماليك لإمارته "ولعل من أبرز مظاهر هذا التأييد تولية سلطان مصر الملك الناصر فرج بن برقوق الشريف حسن بن عجلان منصب نائب السلطنة في الأقطار الحجازية كلها، مما وطد الروابط القائمة بين إمارة مكة وسلطنة المماليك "([9]).

وما لبث أن عُزِلَ الشريف حسن بن عجلان من هذا المنصب في عهد السلطان المؤيد شيخ المحمودي سنة ٨١٥هـ. إثر اضطراب الأوضاع السياسية بالحجاز بين مكة المكرمة من جهة والمماليك والدولة الرسولية باليمن من جهة أخرى

وذلك في أواخر عهد الشريف حسن بن عجلان، وعمد السلطان الملك الأشرف برسباي إلى إرسال عسكر من المماليك إلى مكة المكرمة في كل عام ليقيم بها، ويساعد أميرها من أشراف الحسنيين في تصرف أمور الإمارة.

وشهدت مكة المكرمة استقراراً نسبياً في عهد أولاد الشريف حسن بن عجلان من بعده، وخاصة ابنه الشريف بركات بن حسن، الذي تمتعت مكة في أيامه بالطمأنينة والرخاء والأمن.

ثم تولى إمارة مكة حفيده الشريف محمد بن بركات الذي يُعتبر " من أشهر الأمراء الذين تولوا إمارة مكة المكرمة واتصف بالأدب والتواضع والعقل والفهم، واستقر في حكم مكة قرابة ٤٤عاماً من سنة ٨٥٩هـ إلى سنة ٩٠٣هـ، وهي أطول فترة تولاها أمير بمفرده دون انقطاع، ولم يحدث فيها اضطرابات، ولا عزل.

وفي عهده دخلت معظم بلاد الحجاز تحت حكمه بسبب الحملات التي كان يقوم بها بين الحين والآخر، مما جعل السلطان المملوكي قايتباي المحمودي يمنحه أحقية تولية جميع المناصب في الحجاز في أوائل سنة ٨٨٧هـ "([10]).

وهذه الفترة تُعْتبر فترة استقرار ذهبية للحالة السياسية في مكة المكرمة بعد أن كانت تزعزع استقرارها وأمنها كثرة الخلافات والصراعات والتنازع على الإمارة بين الأشراف الأمراء.

كما تم إعادة الثقة إلى التجار، وبخاصة تجار اليمن حيث أُمِنت القوافل المتجهة إلى جدة بإحاطتها بالحراس حتى تصل القافلة بالمتاجر إلى السفن. واسقط عن التجار ثلث الجباية التي كانت

([8])ابن فهد: إتحاف الورى، (٣ / ٥١٦). وانظر الفاسي: العقد الثمين، (٧ / ٢٨٥).
([9])الفاسي: العقد الثمين، (٤ / ٨٨). وانظر ابن تغري بري: النجوم الزاهرة، (١٠/ ٣١٧)
([10])ابن فهد: الدرر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، ميكروفيلم رقم ٢٥١، تاريخ عن مخطوط مكتبة رضا أمبور بالهند، رقم (٣٦١٣)، ورقة (١٩ ب). وانظر السخاوي: الضوء اللامع، (٧ / ١٥٤)

تفرض عليهم، ونتيجة لهذا ازداد عدد الحجاج ونشطت التجارة في البحر الأحمر "([11]). مما كان له أكبر الأثر على استقرار الأوضاع والأحوال الاجتماعية والاقتصادية ونشر الأمن والطمأنينة في مكة.

وبعد وفاة الشريف محمد بن بركات عادت الخلافات والحروب، وذلك بين ابنيه الشريف بركات بن محمد الذي اشترك مع أبيه وتولى أمر مكة المكرمة، وبين أخيه الشريف هزاع بن محمد. " حيث وقعت بينه وبين أخيه بركات كثير من الحروب من جهة، وأحمد بن محمد بن بركات الملقب بالجازاني من جهة أخرى، الذي دخل مكة سنة ٩٠٨هـ وترك عسكره يعيثون في مكة المكرمة، ويفعلون أفعالاً قبيحة، حيث انتهكوا الحرمات، وصادروا أموال الأهالي والتجار"([12]).

ومع أنَّ مكة المكرمة كانت خلال هذه الفترة من عصر المماليك قد مرت بفترات هدوء، بعد أن مرت بفترات اضطراب وصراع بسبب التنافس على إمارتها والصراع على ولاية المسجد الحرام. فقد تركت تلك الاضطرابات آثارها في حياة الناس السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية. إلَّا أنَّ تلك الاضطرابات والصراعات السياسية لم تحل دون ظهور حركة علمية وتربوية خصوصاً إذا علمنا أن للمماليك اهتماماً خاصاً بالتعليم تمثل في انشاء المدارس والمكتبات وتزويدها بخزائن الكتب، وأوقفوا الأوقاف على المسجد الحرام، واعتنوا بعمارة المسجد الحرام، وبناء المدارس، وبنوا الأربطة للعلماء وطلاب العلم، وازدهرت صناعة الورق والوراقين، وانتشر التصنيف والتأليف؛ مما كان له أثره الإيجابي في نشر العلم والمعرفة في مكة المكرمة.

كما استمال سلاطين المماليك أمراء مكة وأشرافها بالهبات والعطايا، للدعاء لهم في خطب الجمعة، ومواسم الحج، وبذلك ازداد نفوذ المماليك في مكة المكرمة على حساب نفوذ غيرهم من الملوك والسلاطين في اليمن، والعراق والشام، وغيرها من الأقاليم.

ثانياً: العوامل الدينية

لم تكن العوامل السياسية وحدها المؤثرة في إبراز الجهود التربوية لعلماء المسجد الحرام في عصر المماليك، وإنما هناك عوامل أخرى لا تقل أهمية عن العوامل السياسية، لعل من أهمها العوامل الدينية.

فمعلوم أن مكة المكرمة هي قبلة المسلمين في العالم الإسلامي، ومهبط الوحي، وفيها أول بيت وضع للناس قال تعالى: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ) آل عمران: ٩٦.

وجعل الله – عز وجل - الكعبة قياماً للناس، كما قال تعالى: چ (جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ) المائدة: ٩٧.

وأمر نبيه إبراهيم ﷺ أن يطهر هذا البيت للطائفين والمصلين فيه، قال تعالى: (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) الحج: ٢٦.

والآيات الدالة على فضل المسجد الحرام ومكانته في نفوس المسلمين كثيرة، والأحاديث النبوية الصحيحة متواترة في فضل المسجد الحرام ومكانته عند الله يطول سردها وذكرها.

([11])ابن فهد: إتحاف الورى، (٣ / ٤٠٤). وانظر الفاسي: العقد الثمين، (٤ / ٩١).
([12])ابن فهد: بلوغ القرى، ورقة (١٣١ ب).

ولعل هذا ما يؤكد ويُبين تنافس ملوك العالم الإسلامي في فترة عصر المماليك على كسب ولاء حكام مكة المكرمة من الأشراف، ودعمهم رغبةً في ذكر اسمهم والدعاء لهم على منبر المسجد الحرام. مما يصبغ عليهم صبغة خليفة المسلمين، ويضفي عليهم شهرة في جميع أنحاء العالم الإسلامي بإشرافهم على المسجد الحرام والأماكن المقدسة في مكة.

ولعل هذا ما يُفسر رغبة ملوك الدولة الرسولية باليمن وخوضها الحروب مع دولة المماليك من أجل الظفر بالسيادة الروحية والمعنوية على الأماكن المقدسة.

وتشير بعض المصادر التي تم الوقوف عليها أن المماليك كانوا أشد حرصاً من غيرهم على السيطرة على مكة المكرمة وإدارة شئون الحرمين الشريفين، وذلك رغبةً منهم في إيجاد شرعية دينية تسند حكمهم، خاصة وأن أصلهم أرقاء وغرباء عن الجزيرة العربية فهم من الأعاجم وليسوا من أصل العرب، فلم يجدوا إلَّا العناية بالحرمين الشريفين " لاستمالة عاطفة المسلمين إليهم وتأييد حكمهم، ودعم دولتهم في أرجاء العالم الإسلامي، والظهور بمظهر التقوى والورع، مما جعل عامة الشعب تغض الطرف عن البحث في مدى أحقية السلطان القائم بالعرش، وفي أصل المماليك، ومدى أحقيتهم في تولي الحكم "([١٣]).

إضافة إلى إدراك المماليك للأهمية الاستراتيجية للحرمين الشريفين وضرورة السيطرة عليهما، لقطع أطماع منافسيها وبخاصة الدولة الرسولية باليمن، ومغول فارس والعراق باعتبارهم حماة الحرمين الشريفين.

"وهذا اللقب – حامي الحرمين الشريفين – أول من تلقب به هو السلطان المملوكي الظاهر بيبرس، وعُرف ذلك من نقش موجود بقلعة دمشق تاريخه ٦٥٩هـ "([١٤]).

كما حرص سلاطين المماليك على إحياء الخلافة العباسية وربطها بالقاهرة، مما أعطى المماليك مكانة دينية مرموقة في العالم الإسلامي، وظهرت دولة المماليك بوصفها حامية الخلافة الإسلامية المبايعة لها، المحاربة للتتار والصليبين التي استطاعت كسر شوكة دولة المغول – التي قيل أنها لا تقهر – في معركة عين جالوت سنة ٦٥٧هـ بقيادة السلطان المملوكي سيف الدين قطز، مما أكسبهم مكانة دينية في جميع أرجاء العالم الإسلامي.

وقاموا بتأمين وحماية طريق الحج والعمرة، وخدمة الحرمين الشريفين، وعمارة المسجد الحرام، وكسوة الكعبة المشرفة والحجرة النبوية الشريفة، وحرصوا على أداء الحج كل عام مع المسلمين، وأجزلوا الهبات والعطايا والصدقات لأهل مكة، وبنوا المدارس، والأربطة، وأوقفوا الأوقاف خدمةً للعلماء وطلاب العلم، وهنا يشير الباحث إلى أبرز الجهود الدينية التي قام بها المماليك وعنايتهم بشئون المسجد الحرام، ومن ذلك ما يأتي:

١. **تعيين ناظر يقوم بشئون المسجد الحرام:** من مظاهر عناية دولة المماليك بالمسجد الحرام وضع حامية عسكرية في مكة المكرمة لحفظ الأمن، وإدارة شئون مكة المكرمة، وأصبح رئيسها يُشرف على شئون المسجد الحرام خاصة بعد الفتن والاضطرابات التي كانت تحصل بين أمراء مكة من الأشراف، أو الاقتتال الذي حصل بين أمراء الحج والذي سبق الإشارة إليه في العوامل السياسية.

([13])سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، ص١٥٣. وانظر المقريزي: السلوك لمعرفة الملوك، (١ / ٧٢٤).

([14])حسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التأريخ والوثائق، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م، ص٢٦٨.

وكان المشرف على شئون المسجد الحرام يُسمى بناظر المسجد الحرام، حيث يصدر مرسوماً من السلطان المملوكي بمصر بتعيينه في هذا المنصب الرفيع.

وكان ناظر المسجد الحرام يُعين من أهل العلم والفضل من المشايخ والعلماء من أهل مكة ممن يُعْرف بإخلاص العمل لله سبحانه وتعالى، وله ولاء لسلطان دولة المماليك في مصر.

" ففي سنة ٨٥٩هـ ورد مرسوم من مصر يتضمن أن تكون نظارة المسجد الحرام للشيخ الخطيب برهان الدين بن إبراهيم بن علي بن ظهيرة خلفاً للأمير طوغان ناظر المسجد الحرام الذي عُين قبله([١٥]).

٢. **تأمين طريق الحج:** يُعْتبر تأمين طريق الحج من العوامل الدينية التي أسهمت في نشر الجهود التربوية لعلماء المسجد الحرام في عصر المماليك. حيث دولة المماليك تُشرف على تأمين الطريق وتوفير الأمن لقوافل الحجاج

وكانت بعض القبائل تقطع طريق تلك القوافل بقصد سلبها وأخذ ما مع الحجاج من مالٍ وزاد وكان بعض أمراء القبائل يطمع في قوافل الحجاج فيقطع عليها الطريق، ولا يسمح بمرورها إلَّا بمبلغ من المال.

ومن ذلك قيام أفراد من قبيلة بلي - أحد قبائل قضاعة مسكنها بين المدينة ووادي القرى – حين قاموا " بمهاجمة لقوافل الحجاج عام ٨٤١هـ عند عودتها من مكة وطلبوا من الحجاج مبالغ من الذهب. وعندما امتنع بعضهم مالوا عليهم يقتلون ويأسرون، واستولوا على حوالي ثلاثة آلاف جمل بأحمالها ومن سلم من الحجاج فر هرباً على وجهه سعياً على الأقدام، فمات منهم من العطش عدد كبير"([١٦]).

ولهذا قامت دولة المماليك بتسليح قوافل الحجاج التي تخرج من الشام أو مصر، " فيكون بصحبتها حامية عسكرية تحت قيادة أحد الأمراء ممَّا يساعد في حفظ الأمن للقافلة. كما كانت تقوم بمعاقبة القبائل التي تهاجم قوافل الحجاج، وذلك بتجريد الحملات عليها وقتالها، ومن ذلك تجريد حملة عسكرية سنة ٨٤٣هـ على قبيلة بلي – التي سبق ذكرها – فقتلت عدداً من أفرادها، وأسرت منهم أربعين قدمت بهم الحملة إلى مصر حيث قتلوا جميعاً"([١٧]).

وكان العلماء يفدون لمكة المكرمة لأداء مناسك الحج والعمرة من كل فج عميق استجابة لنداء إبراهيم عليه السلام قال تعالى: (وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) الحج: ٢٧

وكان العلماء يفدون في مواسم الحج لمكة المكرمة عبر قوافل تُعرف بركب الحاج، ويؤمَّر عليها أميرٌ يُسمى بأمير الركب، " يُعين من قِبل السلطان، ويشترط فيه أن يكون مسلماً، بالغاً خالياً من العاهات الجسمية والعقلية ويكون مطاعاً، عالماً بأحكام الحج، مشهوداً له بالصلاح والتقوى، تُوكل إليه العناية والرعاية بركب الحاج، والرفق بهم في السير، ومراعاة الضعفاء"([١٨]).

وقد كان من مهام أمير ركب الحاج إقامة الصلوات الخمس في أوقاتها، والجمع بين الصلاتين في وقت واحد، وكان أمير الحاج يستمع إلى شكوى الحجاج الذين معه في الركب، ويصلح بين المتنازعين منهم، وإن كانت الخصومة شرعية أحالها إلى قاضي المحمل الذي يرافق

([15])قطب الدين: النهروالي، الإعلام بأعلام البيت الحرام، (٣ / ٢٢٠). وانظر ابن فهد: إتحاف الورى، (٤ / ٢٦٢).

([16])ابن فهد: إتحاف الورى، (٤ / ١١٧).

([17])الخزرجي: العقود اللؤلؤية، (١ / ٢٩٠). وانظر السخاوي: الضوء اللامع، (١ / ٢٤٧).

([18])الماوردي: الأحكام السلطانية، ص١٠٨. وانظر الجزيري: الدرر الفرائد، (١/ ٢٢٥).

ركب الحاج، وإن تنازع أحد من ركب الحاج مع أحد من أهل البلدان التي ينزل فيها ركب الحاج أحال المنازعة إلى حاكم ذلك البلد، وكان لأمير ركب الحاج أن يؤدب الجاني ويُعزره لمنعه وردعه.

ولابد لأمير الركب أن يكون عالماً بأحكام المناسك وأماكن المشاعر، خطيباً، فوظيفته من أجل المراتب الدينية، وهو نائب عن الإمام الأعظم في خدمة هذه الشعيرة العظيمة. وكان من مهام أمير الركب معرفة المواقيت المكانية والزمانية، فيُشعِر الحجاج ويُعْلِمهم متى، وأين يُحْرمون.

وكان من واجباته أيضاً تحري شهر الحج، وتحديد اليوم الأول منه لمعرفة يوم عرفة، والذهاب بهم إلى المشاعر المقدسة، وإليه ترتيب مناسك الحج، وبيان ما هو واجب وما هو مستحب، وكان يستمع إلى الحجاج في كل شيء يخص مناسك الحج، ويُجيبهم على استفساراتهم، وله إصدار الفتوى والأحكام الشرعية المتعلقة بمناسك الحج([١٩]).

٣. **إقامة السبيل لخدمة الحجاج:** من مظاهر العناية الدينية في عصر المماليك العناية بتوفير مياه الشرب حيث يُعتبر الماء من أهم ضروريات الحياة، ولهذا اهتم المماليك بالسبيل خدمة لحجاج بيت الله الحرام وقاصديه من الزوار وطلاب العلم. وقد ذكر الفاسي – رحمه الله - مجموعة من السَبِيْل في مكة المكرمة في عصر المماليك، والذي وضع تقرباً إلى الله وخدمة لضيوفه من الحجاج منها: " سبيل عطية بن ظهيرة شمال مكة المكرمة، وسبيل قاسم الزنكي مسجد الراية، وسبيل أم الحسن بنت القاضي شهاب الدين الطبري بالمسعى، وسبيل لابن بعلجد عن عين بازان عند منارة باب على المسجد الحرام، وسبيل الشريف حسن بن عجلان برباطه، وسبيل أم سليمان بالمعلاة، وسبيل القاضي زين الدين عبد الباسط ناظر الجيوش سنة ٨٢٦هـ بالمعلاة، وسبيل عطية المطير، وسبيل جهة منى للشريف حسن بن عجلان أنشأه سنة ٨١٢هـ، وسبيل الست أخت الناصر حسن صاحب مصر بطريق منى أنشأته سنة ٧٦١هـ "([٢٠]).

كما قام سلاطين المماليك والأشراف والوجهاء بتوفير السَبِيْل على طول الطريق البري من مكة المكرمة إلى بلدان العالم الإسلامي في عصر المماليك، " ففي الطريق من مصر إلى الحجاز عهد السلطان المملوكي جمقمق عمر ناظر الحرم سنة ٨٥٢هـ بئر خوجا عين حنين وأصلح مجاريها ورسها على نفقته"([٢١]).

" وقام السلطان قايتباي المملوكي بإرسال الأمير سنقر الجمالي سنة ٨٧٥هـ وأمره بإصلاح عين عرفات، إذ كان ماؤها قد انقطع لفترة مائة عام، وبنى بجوار مسجد الخيف سبيلاً وعمر بركة خليص على نفقته"([٢٢]).

ومن أعمال الشريف محمد بن بركات أمير الحجاز في ذلك الوقت سبيل بالنورية من طريق وادي مر الظهران، وسبيل بطريق جده عند بئر شميس"([٢٣]).

وقد كان لهذا الاهتمام من سلاطين المماليك وعنايتهم بتوفير مياه الشرب للحجاج والمقيمين من أهل مكة والمجاورين من العلماء وطلاب العلم أعظم الأثر في نشر العلم ومساعدة المتعلمين على التزود من مختلف العلوم في راحة ويُسْر، ودون مشقة أو عناء، الأمر الذي شجع على زيادة

([19])الجزيري: الدرر الفرائد، (١/ ٢٢٩). وانظر حمد لبيب البتانوني: الرحلة الحجازية، ص١١٠ " بتصرف ".
([20])الفاسي: شفاء الغرام، ص٣٣٧، وانظر الصباغ: تحصيل المرام، ص١٥٩.
([21])محمد شكري: لوحان أثريان، ص١٥.
([22])ابن فهد: إتحاف الورى، ص١٥.
([23])الطبري: إتحاف فضلاء الزمن، ص١٥١. وانظر العصامي: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، (٤ / ٢٧٩).

الوافدين من شتى أنحاء العالم الإسلامي على الرحلة للحج لبيت الله الحرام، وملاقاة العلماء والأخذ منهم في شتى المعارف والعلوم.

٤. **عمارة المسجد الحرام:** يُعَدُ عمارة المساجد من أعظم القُرَب عند الله، وأجل المفاخر في الدنيا والآخرة وهو دليل الإيمان بالله واليوم الآخر قال تعالى: (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ فَعَسَى أُوْلَـئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ) التوبة: ١٨.

وقد وفق الله عبر التاريخ الإسلامي منذ فجر الرسالة الخلفاء والملوك والسلاطين إلى القيام بعمارة المسجد الحرام، والعناية بتحسينه وتزيينه بأبدع وأحسن ما يجوز عمله في مساجد الله عبر مر العصور.

وقد كانت آخر عمارة للمسجد الحرام قبل عصر المماليك عمارة الخليفة المهدي سنة ٦٣٨هـ وقد جاء في وصف هذه العمارة للمسجد الحرام بأنها: " مفخرة المسلمين، يمثل عظمة العصر الذي تشيد فيه، وضخامة الدولة التي أنشأته على تلك الصفة في متانة بنيانه، وبهجة منظره، وجمال رونقه، وبديع زخرفه. لم يعتريه خراب طيلة هذا المدة إلَّا ما كان من حدوث شيء بسيط"([٢٤]).

واستمر المسجد الحرام على هذا الحال من البهاء والجلال والجمال حتى ليلة الثامن والعشرين من شهر شوال سنة ٨٠٢هـ إلى أن نشب حريق كبير في الجهة الغربية من المسجد الحرام بين باب إبراهيم عليه السلام، وباب الوداع، حيث يذكر المؤرخون أن ناراً ظهرت من رباط الشيخ أبي القاسم إبراهيم بن الحسن الفارسي، وكان قد أوقف هذا الرباط على رجال الصوفية سنة ٥٢٩هـ، وسبب تلك النار ترك بعض سكان الخلاوي سراجاً موقداً في خلوته، وبرز عنها، فسحبت الفارة الفويسقة فتيلة السراج منه إلى خارجه فاحترقت الخلوة، واشتعل اللهب في سقف الخلوة وخرج من شباكها المشرف على المسجد الحرام، واتصل بسقفه والتهب به، وعجز الناس عن طفئه لعلوه، وعدم وصول اليد إليه.

فعم الحريق الجانب الغربي من المسجد الحرام، واستمرت النار تأكل من السقف وتسير، ولم يتمكن الناس من إطفائها لعدم الوصول إليها بوجه من الوجوه، إلى أن وصل الحريق إلى الجانب الشمالي. واستمر يأكل من سقف الجانب الشمالي إلى أن انتهى إلى باب العجلة.. . واحترق من العمد الرخام مائة وثلاثون عموداً صارت كلها كلساً، ولم يتفق فيما مضى مثله، فصار ما احترق من المسجد الحرام أكواماً عظاماً تمنع من وراءها من رؤية الكعبة المشرفة، ومن الصلاة أيضاً في ذلك الجانب"([٢٥]).

ووصل خبر هذا الحريق إلى سلطان المماليك آنذاك بمصر، فأرسل الأمير بيسق الظاهري للقيام بعمارة المسجد الحرام، فقدم في موسم حج سنة ٨٠٣هـ، وبعد انتهاء موسم الحج، وسفر الحجاج إلى ديارهم، شرع الأمير بيسق في عمارة المسجد الحرام، حيث كشف أساس العمارة السابقة ورفع عليها البناء من جديد، وأعاد ما استطاع إصلاحه من أعمدة المسجد السابقة التي كانت من الرخام، وأتم عمارة المسجد الحرام في أواخر شهر شعبان سنة ٨٠٤هـ.

"ولم يبقَ له سوى تسقيف المسجد الحرام، وذلك لعدم وجود أخشاب بمكة تصلح لذلك، وعاد الأمير بيسق إلى مصر ثم قدم مكة المكرمة سنة ٨٠٧هـ، وقد جلب الأخشاب اللازمة لتسقيف

([24])حسين باسلامة: تاريخ عمارة المسجد، ص٦١.

([25])الفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، (١ / ٤٣١). وانظر حسين سلامة: تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص٦٢.

المسجد الحرام، وشرع في العمل واستعان بكثير من خشب العرعر لعدم كفاية الخشب الذي أتى به، وأكمل العمارة على أحسن وجه في نفس السنة"([٢٦]).

وقد شملت عمارة المسجد الحرام في عصر المماليك

- **باب الكعبة المشرفة وحليته:** شمل اهتمام المماليك بعمارة المسجد الحرام عنايتهم بباب الكعبة المشرفة " تم تغييره وتحليته في عصر المماليك، فعمل السلطان قلاوون باباً للكعبة انفق على تحليته ٣٥٣٠٠ درهماً، وركب سنة ٧٣٣هـ"([٢٧]). وفي سنة ٧٦١هـ عمل الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون بمكة المكرمة باباً للكعبة المشرفة من خشب الساج، وتم تحليته سنة ٧٧٦هـ بأمر الملك الأشرف شعبان بن حسين بن الملك الناصر محمد بن قلاوون، ثم توالت أعمال التحلية على الباب الشريف، ولم يكن هناك تغيراً له"([٢٨]).

أما ميزاب الكعبة المشرفة فلم يحدث أن غُير خلال عصر المماليك، وإنَّما " حُلي مرتين: الأولى سنة ٧٧٦هـ بأمر السلطان الأشرف شعبان بن الحسين، والثانية على يد الأمير سودون المحمدي سنة ٧٨١هـ"([٢٩]).

- **كسوة الكعبة المشرفة**([٣٠]): وهي من أبرز مظاهر عناية المماليك الدِّينية بالمسجد الحرام، حيث حرص سلاطين المماليك على إرسال كسوة الكعبة سنوياً إلى المسجد الحرام، لما في كسوة الكعبة المشرفة من إعلان السيادة على الحرمين الشريفين، ولعل هذا ما يفسر رفض سلاطين المماليك بشدة أي محاولة من جانب ملوك الدولة الرسولية باليمن، أو ملوك دولة العراق، أو التتار لإرسال كسوة الكعبة المشرفة.

بل وصل الأمر إلى قتال الملك علي بن داود بن رسول سنة ٧٥٢هـ عندما حج وعزم على كسوة الكعبة الشريفة فمنعه أمراء المماليك المصاحبون لقافلة الحج المصري، وقامت بين الجيشين معركة انتهت بالقبض على الملك علي بن داود بن رسول، وحُمل أسيراً إلى مصر، وبقى بها إلى أن أطلق سراحه وعاد إلى اليمن.

- **مقام إبراهيم** عليه السلام: ([٣١]) اهتم سلاطين المماليك بمقام إبراهيم عليه السلام، فقاموا بمتابعته وإصلاح ما يحتاج إليه من ترميم وتزيين، ومن ذلك أنه في سنة ٧٢٨هـ عُمل للمقام شبابيك من جميع جوانبه من الحديد بدل الخشب، وفي سنة ٨١٠هـ جددت قبة المقام. أما في سنة ٨٣٠هـ دُهن أعلى قبة المقام باللون الأبيض، وأعيد دهنه في سنة ٨٤٣هـ.

وغُير لون القبة إلى اللون الأخضر وطُرز أسفلها بالذهب وكذلك سقفها في سنة ٩١٥هـ، وفي سنة ٩١٦هـ حصل في القبة بعض الشقوق، مما دعا إلى إصلاحها بالرصاص، وتحليتها بالذهب، وهذا يدل على اهتمام المماليك وعنايتهم الدينية بالمسجد الحرام.

- **عمارة الأبواب**([٣٢]): شملت عمارة سلاطين المماليك أبواب المسجد الحرام فقاموا على تجديدها، وإصلاحها وتقويتها " ففي سنة ٨٢٦هـ عملت صيانة لأبواب المسجد الحرام جميعاً على يد الأمير مقبل القديدي، وفي سنة ٩١٣هـ بُني عقد لباب إبراهيم حيث لم يكن له عقد،

([26])ابن فهد: إتحاف الورى، (٣ م ٤٢٠). وانظر الفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، (١ / ٤٣١).
([27])ابن كثير: البداية والنهاية، (١٤ / ١٦٢). وانظر الفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، (١ / ١٩٩).
([28])الفاسي: العقد الثمين، (١ / ٢١٩). وانظر السخاوي: منائح الكرام، (٢ / ٤١٤).
([29])الفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، (١ / ٢٩٧).
([30])القلقشندي: صبح الأعشى، (٥ / ٣١). وانظر المقريزي: الذهب المسبوك، ص١١٤ – ١١٧.
([31])ابن فهد: بلوغ القرى، (١ / ٤٤٥).
([32])ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص٨٢. وانظر باسلامة: تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص١٧٩.

وفي سنة ٩١٥هـ أصلح درج أبواب المسجد الحرام من باب الصفا من الجهة الجنوبية الشرقية إلى باب العمرة في الجهة الشمالية الغربية حيث شملت الإصلاحات جميع الأبواب في الجهتين الشرقية والشمالية.

وفي سنة ٩٢٠هـ قام المماليك بعمارة في باب إبراهيم كانت عبارة عن تخفيض مستوى الباب من داخل المسجد الحرام، حيث منع ارتفاع الباب خروج مياه السيول من المسجد الحرام.

- **مآذن الحرم الشريف**([33]): كان للمسجد الحرام في عصر المماليك خمس مآذن، وقد قام المماليك بإعادة عمارة مئذنة باب الحزورة التي سقطت سنة ٧٧١هـ بسبب المطر، وفي سنة ٨٠٩هـ تم إعادة عمارة مئذنة باب بني شيبة التي سقطت سنة ٨٠٩هـ فأمر السلطان الناصر فرج بإعادتها وتم انتهاء العمل فيها سنة ٨١١هـ.

وفي سنة ٨٣٨هـ تم هدم وعمارة مئذنة باب سويقة، حيث خُشِي من سقوطها، وتم بناء مئذنة جديدة هي مئذنة السلطان قايتباي في الجهة الشرقية من المسجد الحرام، وشمل الاهتمام بمآذن المسجد الحرام دهانها باللون الأبيض، وفي سنة ٩١٠هـ تم إعادة بناء مئذنة السلطان قايتباي عندما سقطت.

ثالثاً: العوامل الاقتصادية

تقع مكة المكرمة في وادٍ تحيط به الجبال من كل جانب، وهي منطقة جافة، قليلة الأمطار، وقد جاء وصفها في القرآن الكريم بأنها وادٍ غير ذي زرع، كما وصفها خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام فقال: (رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) إبراهيم: ٣٧.

فدعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يجعل قلوب الناس تَحِنُ إليهم، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ إبراهيم: ٣٧.

وقال تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ) البقرة: ١٢٦. فغدت مكة المكرمة عبر مرّ العصور بلدة يؤتى إليها من كل الثمرات والخيرات.

وقد كان لموقع مكة المكرمة الاستراتيجي الذي انفردت به أكبر الأثر في ازدهار الحياة الاقتصادية وانتعاش التجارة فكانت مركزاً عالمياً للتبادل التجاري بين دول العالم في ذلك الوقت، حيث انطلقت قوافل التجارة من مكة وإليها حاملة معها التجارة، وكانت محطة للقوافل التجارية تتزود منها بالماء والمؤنة لمواصلة السير عبر البر أو البحر عن طريق ميناء جدة أو ميناء ينبع الذي يقع بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، وهكذا سارت مكة المكرمة في دروب التجارة بين البر والبحر.

وكانت قوافل التجارة تقدم إلى مكة المكرمة من مصر والشام والعراق في الصيف، وإلى اليمن والحبشة في الشتاء وهما رحلة الشتاء والصيف التي ذُكرت في القرآن الكريم، قال تعالى (لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ. إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ. فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ. الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) قريش: ٢ - ٤.

وفي عصر المماليك ازدهرت التجارة، وقد ذهب بعض المؤرخين إلى تفسير رغبة دولة المماليك في السيطرة على الحرمين الشريفين لم يَكُن هدفاً دينياً فحسب، وإنما " أراد الظاهر بيبرس أن تحقق سيطرة على الطرق التجارية عبر البحر الأحمر، فتظاهر بحماية الحجاج، والعناية بهم ليحقق إلى جانب الهدف السياسي هدفاً اقتصادياً يوطد بهما دعائم دولته تلك لأن مكة ظلت طوال

([33])ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص١٦٠. وانظر العبدري: الرحلة، ص١٧٤.

العصور الوسطى مركزاً مهماً من مراكز التجارة الشرقية الواردة بطريق البر من عدن وجدة والسيطرة على الحجاز يضمن للتجارة المملوكية حمايتها، وتأمين سبلها"([٣٤]).

ويجْدُرُ القول بأن الأوضاع الاقتصادية في مكة المكرمة لم تكن مستقرة في عصر دولة المماليك، بل كانت أسعار السلع ترتفع وتنخفض حسب الظروف السياسية، والاقتصادية، والمناخية، كما كان لارتفاع السلع في الأقطار المجاورة كمصر والشام واليمن والعراق أثر في هذا التذبذب، لأن كثيراً من السلع تأتي إلى أسواق مكة من تلك الأقطار.

وكان للضرائب التي يفرضها المماليك على الحجاج، والتجار أثره على الجانب الاقتصادي، وقد كان سلاطين المماليك يعمدون إلى بعض الفقهاء لاستصدار فتوى تؤيدهم في أخذ المكوس من الحجاج والتجار.

ففي سنة ٨٤٣هـ أوعز السلطان المملوكي جقمق إلى القضاة بإصدار فتوى في هذا، فأصدر الفقهاء الأربعة بجواز أخذه لتلك المكوس، ولعل ذلك القرار الذي اتخذه الفقهاء يرجع إلى خوفهم على مناصبهم، وأن يعزلهم السلطان المملوكي منها "([٣٥]).

وكان من عوامل ازدهار الحياة الاقتصادية في الحرمين الشريفين تأمين طرق الحجاج وتشديد الحماية لقوافل الحج والتجارة، ومعاقبة القبائل التي تقطع الطريق، أو تفرض أموالاً لمرور القوافل أثره في ازدهار التجارة في بلاد الحجاز على وجه العموم وفي الحرمين الشريفين خاصة.

واعتاد سلاطين المماليك عند ذهابهم للحجّ أن ينفقوا عن سعة، ويوزعوا الصدقات على المحتاجين من أهل الحرم، بالإضافة إلى الأوقاف التي يوقفها السلاطين والملوك والأمراء والأغنياء على الحرمين الشريفين، كل ذلك كان يُسْهم في ازدهار اقتصاد الحجاز.

كما كان لاهتمام المماليك بالمنشآت التي تخدم الحركة التجارية ومنها الأسواق التي كانت تُعقد في مكة المكرمة في موسم الحج، وقد أشار السخاوي إلى نشاط الأسواق في موسم الحج فقال: " كان يصلها أعداد كبيرة من التجار والحجاج الذين يشترون السلع الشرقية، ومنها: الشاش والأرز واللؤلؤ والعقيق والبز، فكان يدخل إلى مكة في كل يوم خميس مئة جمل"([٣٦]).

ويقول ابن المجاور في وصفه لكثرة أعداد التجار والحجاج في موسم الحج: " ليس يمكن بها السكون لازدحام الخلق بها في أيام موسم الحج، لأنه يلتام إليها من جميع أطراف بلاد العالم.. من ديار مصر والمغرب والهند واليمن"([٣٧]). وكان يصل إلى أسواق مكة المكرمة أنواع من السلع من مصادر مختلفة حول العالم، ولعل من أشهر تلك السلع:

- **التوابل والبهارات:** ويُعدُ الفلفل من أبرز أنواع التوابل، وأهمها وأكثرها طلباً، وأشهر مناطق إنتاجه الهند في بلاد مليبار، قال ياقوت الحموي عن الفلفل الهندي: " ومنها يُجلب إلى جميع الدنيا"([٣٨]). كما يُنتج الفلفل في إندونيسيا في جزيرة جاوه الكبرى والصغرى، وجزيرة رامني،

([34])سليمان عطية: سياسة المماليك في البحر الأحمر، ص٢٦. وانظر علي الناصر: النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطى، ص٥٩.

([35])ابن فهد: اتحاف الورى، (٤ / ٤٤).

([36])السخاوي: التبر المسبوك، ص١٩. وانظر خالد العمايرة: موانئ البحر الأحمر وأثرها في تجارة دولة المماليك، ص١٧٩.

([37])ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص٥١.

([38])ياقوت الحموي: معجم البلدان، (٥ / ١٩٦).

وجزيرة ملي، " ويكثر إنتاج الفلفل في جزيرة سومطرة بحيث كان يُشحن منها في كل عام من ثماني عشر إلى عشرين سفينة"([٣٩]).

- **العطور والبخور**([٤٠]): ومن أشهر أنوعها الند والمسك، وخشب الصندل، والعنبر، واللبان الجاوي ومعظمها يستورد من الهند والصين عن طريق البحر الأحمر. ويُعتبر العود الهندي – وهو شجرة تشبه شجرة البلوط قشرة رقيقة وعرقة طويلة ممتدة - من نفيس الطيب، ومن أنواعه كثيرة. وقد اشتهرت بإنتاجه الهند، وكشمير، وجاوة وجزيرة قمار المنسوب إليها العود القماري.
- **الأحجار الكريمة والمعادن النفيسة**([٤١]): كان يصل لميناء جدة أنواعٌ كثيرةً منها. فمن الأحجار الكريمة: الياقوت الذي يتوافر بكثرة في جزيرة سيلان، والماس، والعقيق، واللؤلؤ...، ومن المعادن النفيسة: الذهب الذي يأتي من جزيرة زنجبار، وجزيرة القمر التي سميت ببيت الذهب لكثرة ما أخذ المسلمون منها الذهب.

ومن المعادن النفيسة الزمرد الهندي المعروف بالمكي، حيث كان يصل من الهند إلى ميناء عدن، ومنها ينقل إلى ميناء جدة ثم إلى مكة المكرمة، لذلك عُرف بالمكي.

ومن السلع التي كانت تصل إلى مكة المكرمة عبر ميناء جدة المنسوجات الحريرية، والديباج، والحرير الصيني والثياب القطنية المخملة، والأخشاب التي كانت تصدر من الهند، والساج، والأثاث، والتحف، والسروج المصنوعة من الجلد، والسيوف الهندية، والعاج، والفخار الصيني، وجلود الحيوانات، والفضة والنحاس والحديد، والخيول والإبل، والأبقار، والغزلان.

الموارد الاقتصادية لمكة المكرمة في عصر المماليك:

تنوعت الموارد الاقتصادية لمكة المكرمة في عصر المماليك، ولعل من أهم تلك الموارد الاقتصادية ما يأتي:

- **موسم الحج:** حيث يفد إلى مكة المكرمة في كل عام الألوف من الحجاج لأداء مناسك الحج، ويقيمون فيها مدة من الزمان، فكان الحجاج طول فترة مكثهم في مكة يشترون من أسواقها ما يأكلون ويشربون، كما كانوا يُنفقون من أموالهم على السكن والإقامة، وكان من أهل مكة من يعمل بمهنة الطوافة لحاجة بعض الحجاج ممن لا يُحسن مناسك الحج إلى من يرشدهم إلى أداء المناسك، وهذا يوفر دخلاً مجزياً لأهل مكة.

وكان أمراء مكة يأخذوا المكوس من الحجاج، ومقدارها سبعة دنانير مصرية ونصف على كل حاج، ومن لم يؤد المكس يعاقب بأنواع شتى من العقوبات، وذكر المؤرخون: " أنه كان يؤخذ من المغاربة جزية في جدة إذا قدموا للحجّ وظل الأمر على ذلك النحو حتى أسقط السلطان المملوكي صلاح الدين مكس الحاج، وعوض أهل أمير مكة ألفي دينار وألف إردب من القمح، إضافة إلى إقطاعات بصعيد مصر واليمن، بلغت ما مجموعه ثمانية آلاف أردب قمحاً تحمل سنوياً إلى جدة "([٤٢]).

- **التجارة الخارجية والداخلية بمكة المكرمة:** تعد التجارة من أهم الموارد الاقتصادية لمكة المكرمة، وفي موسم الحج يفد التجار إلى مكة للبيع والشراء من شتى بقاع الأرض، ويجلبون

([39])خالد العمايرة: موانى البحر الأحمر وأثرها في تجارة دولة المماليك، ص٢٠٤.
([40])ابن بطوطة: الرحلة، ص٦٢٣. وانظر القلقشندي: صبح الأعشى، (٢ / ١٣٤).
([41])الحميري: الروض المعطار، ص٤٨٤. وانظر شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٦١. الإدريسي: نزهة المشتاق، (١ / ٢٠٧).
([42])ابن جبر: الرحلة، ص٢٨. وانظر ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص٤٨. المقريزي: السلوك، (٣ / ١٨).

معهم منتجات بلادهم يعرضونها في الأسواق التي تنتشر حول المسجد الحرام، وفي منطقة المشاعر المقدسة. وقد تحدث المؤرخون كابن جُبير وغيره عن حركة التجارة ونشاطها الاقتصادي المزدهر بمكة المكرمة، مما جعلها من أكثر البلاد نعيماً وفواكه وأسواق ومرافق.

" فيجتمع أهل المشرق والمغرب في مواسم الحج فتباع وتُشترى مختلف البضائع من أغذية وملابس وعطور وذهب وفضة، وما لا يباع في غيرها من البلاد، مما أتاح لأهل مكة وضعاً اقتصادياً، فراجت حركة البيع والشراء رواجاً كبيراً "([٤٣]).

أ ـ التجارة الخارجية بمكة المكرمة:

- **منطقة قبائل جبال السراة**: ومنهم قبائل زهران وغامد وبجيلة وغيرها، كانوا يقصدون مكة المكرمة في أوائل شهر رجب من كل عام لأداء مناسك العمرة، "ويجلبون معهم الحبوب كالحنطة والشعير والذرة، والدُخُن، وكذلك العسل والسمن، والسويق، واللوز، والزبيب، ومختلف أنواع الفاكهة كان قدومهم إلى مكة يؤدي إلى رخص الأسعار"([٤٤]).

ولم يكن بيع قبائل جبال السراة مع أهل مكة بالدنانير والدراهم، بل كان يقوم على بيع السلع بما يقابل سعرها من سلع أخرى يحتاجون إليها، وهو ما يُعرف اليوم بالتبادل التجاري، يقول ابن جبير: " وقبائل السّراة لا يبيعون الميرة بدينار ولا درهم، وإنما يبيعونها بالخرق والعباءات والشمل، فأهل مكة يعُدون لهم من ذلك مع الأقنعة والملاحف المتان ـ وما أشبه ذلك مما يلبسه الأعراب، ويبايعونهم به ويشارونهم "([٤٥]).

- **اليمن:** وهي من مصادر المواد الغذائية لأهل مكة المكرمة إلى وقتنا الحاضر، وقد ذكر الفاسي: " حدث غلاء في مكة سنة ٧٠٧هـ، لأن سلطان الدولة الرسولية باليمن الملك المؤيد داود منع إرسال القوت إليها – يعني إلى مكة – لتدهور العلاقات بينه وبين أميري مكة حميصة ورميثة ابني أبي نمي، ولم ترخص أسعار الحبوب بأسواق مكة حتى رفع المؤيد حظره هذا خلال السنة نفسها "([٤٦]).

وكانت السفن تصل إلى ميناء عدن من مختلف دول العالم كالهند، وجزر القمر، والصين محملة بمختلف البضائع لتباع بمكة المكرمة في موسم الحج، " ويصل إلى مكة في مواسم وصول السفن سفن الهند إلى عدن ما لا يقل عن ثمانين ألف جمل، وبعد انقضاء موسم الحج تستمر في سيرها إلى دمشق، وتعود بسلع الشام والغرب الأوربي إلى عدن، وكانت تؤخذ العشور على التجارة، وكانت هذه العشور مورداً مهماً من موارد مكة"([٤٧]).

- **السودان:** لم تقتصر قوافل التجارة التي تصل إلى مكة في موسم الحج على الجزيرة العربية، بل هناك مصادر أخرى تقع خارج الجزيرة العربية، لعل من أهمها السودان ومصر، فقد ذكر بعض المؤرخين إلى أن جزيرة سواكن على ساحل البحر الأحمر تأتي منها إلى مكة المكرمة"الألبان والسمن وحبوب الجرجور - نوع من الذرة الكبيرة الحب - تُجْلبُ إلى مكة من سواكن"([٤٨]).

([43])السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص١٧٣. وانظر ابن جبر: الرحلة، ص٨٦.
([44])ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص٢٧.
([45])ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، (١ / ١٨٣). وانظر ابن جبر: الرحلة، ص١١١.
([46])الفاسي: شفاء الغرام، (٢ / ٢٧٢).
([47])نعيم زكي: طرق التجارة، ص١١٢.
([48])ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، (١ / ٢٦٩).

ويؤكد الفاسي أهمية السودان في الحياة الاقتصادية لأهل مكة المكرمة " أن غلاء أسعار الحنطة والذرة الذي حدث بمكة سنة ٨٠٥هـ لم ينته إلّا بوصول الجلاب من سواكن، فعدم وصول الذرة من سواكن كالمعتاد يُعد من أهم أسباب الغلاء في مكة"([٤٩]).

- **مصر والشام:** كانت مصر عاصمة دولة المماليك، وكانت الشام تابعة آنذاك لحكم المماليك، وكان سلاطين المماليك يرسلون إلى مكة الحبوب كصدقات وصلات رسمية للأشراف خاصة، ولأهل الحرمين الشريفين عامة، إضافة إلى أن جزءاً كبيراً من أوقاف الحرمين الشريفين في مصر تُعد من أهم الموارد المالية للحياة الاقتصادية بمكة المكرمة.

وكان من عادة سلاطين وأمراء المماليك تجهيز الأقوات وإرسال الصدقات لأهل مكة، خصوصاً إذا أصاب مكة قحطٌ، أو غلاء في الأسعار، أو حصل ندرة في الطعام، " كما حدث بمكة في منتصف سنة ٧٠٧هـ من غلاء شديد في الأسعار، فقد بيعت الحنطة بألف وخمسمائة درهم، والذرة بأكثر من تسعمائة درهم، وكان سبب الغلاء أن صاحب اليمن الملك المؤيد قطع الميرة عن مكة لما بينه وبين صاحبي مكة الشريف حميضة، والشريف رميثة ابني أبي نمي من خلاف"([٥٠]).

ب - التجارة الداخلية:

تُعد مكة المكرمة من أكبر الأسواق التجارية في العالم الإسلامي، وكانت الأسواق حول المسجد الحرام تباع فيها البضائع على مختلف أنواعها، وقد وصفها ابن جبير فقال: " وكذلك المسجد الحرام به سوق تقام في الموسم عند باب بني شيبة، وهي سوق عظيمة يباع فيها من القيق إلى العقيق، ومن البُر إلى الدُر إلى غير ذلك من السلع"([٥١]).

ووصف ابن بطوطة سوق الصفا والمروة وما يباع به بأنه: " سوق عظيم يباع فيها: الحبوب واللحوم والتمر والسمن وسواها من الفواكه، والساعون بين الصفا والمروة لا يكادون يخلصون لازدحام الناس على حوانيت الباعة"([٥٢]).

وكان هناك دكاكين عند باب بني شيبة شرقي المسجد الحرام، " وهو سوق كبير في غاية الجمال يقال له: سوق النداء تم انشاؤها في سنة ٧٨١ه، وأكثر ما يباع فيه الأدوية والعقاقير والحشائش، وسوق يقال له سوق العلافة يختص ببيع أعلاف الحيوانات، ومن باب المعلاة إلى باب الشبيكة على خط الردم يُسْلَكُ منه إلى سوق البُن"([٥٣]).

ويصف بعض المؤرخين هذه السوق وعظمها فيقول: " تحت أقواس المسجد الحرام جلس حوالي أربعة آلاف أو خمسة آلاف إنسان رجالاً ونساءً يبيعون مختلف أنواع المواد العطرية، غالبها مساحيق لحفظ الأبدان وإنعاشها"([٥٤]).

وكان بمكة أسواق تبيع ما يرد إليها في موسم الحج مع قوافل الحجاج، حيث تباع الجواهر وجميع أنواع البهارات والتوابل، والأحجار الكريمة، والخور، والعنبر، والعود، والكُب، والأوراق، وأدوات الكتابة، وما يُجلب من الهند وبلاد السند، والصين، والأمتعة العراقية، واليمنية، والبضائع المغربية، والأقمشة بأنواعها، والحرير، والخضروات والفواكه، والحبوب، وما لا يحصى من

([49])الفاسي: شفاء الغرام، (٢ / ٢٧٤).
([50])الجزيري: الدرر الفرائد، (١/ ٦٠٨).
([51])ابن جبير: الرحلة، ص١٦٠.
([52])ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، (١ / ٣٨٠). وانظر الفاسي: شفاء الغرام، (١ / ١٣) .
([53])الشيخ: عبد الرحمن عبد الله، لود فيكودي فاريتما " الحاج يونس المصري الرحالة الإيطالي والعميل البرتقالي ورحلته إلى الأماكن المقدسة ص٥٨٤.
([54])ابن جبير: الرحلة، ص٨٦.

السلع والبضائع. قال ابن جبير بعد أن ذكر ما يُباع في أسواق مكة: "إلى ما لا ينحصر ولا ينضبط، ما لو فرق على البلاد كلها لأقام لها الأسواق النافقة، ولهم جميعها بالمنفعة التجارية"([٥٥]).

رابعاً: العوامل الاجتماعية

يتألف المجتمع المكي في عصر المماليك من خليط من عدة أجناس بسبب وجود المسجد الحرام، ويمكن تقسيمهم إلى الطبقات الرئيسة الآتية:

١. **طبقة السادة الأشراف:** وقد ذكر النبهاني " أنه في الحجاز اصطلحوا على إطلاق الشريف على من كان حَسنياً، والسيد على من كان حُسينياً للتفريق بينهما"([٥٦]) أي: من ذرية الحسن والحسين أبناء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ. وقيل: " ولاسم الشرف مزية في مكة شرفها الله، ولا يكون هذا إلَّا لمن ولي تخت الإمارة، واسم السادة شرف أعلى في جهات اليمن، وكلا الاصطلاحين لا ينافي بينهما فالجميع أشراف وسادة"([٥٧]).

ومن هذه الطبقة القواد، وهم أتباع أمراء مكة، وأكثرهم من بني الحسن أشراف مكة، مثل: قواد العمرة والحميضات، وكانوا قوة يحسب حسابها في مكة، تستطيع ترجيح كفة أحد الأطراف المتنازعة على الإمرة"([٥٨]).

٢. **القبائل العربية:** ممن يسكنون الجزيرة العربية كقبيلة قريش ومنهم قبيلة آل ظهيرة القرشي، وآل فهد الهاشمي، وأسرة آل الشيبي، وأسرة آل الهاشمي، وآل الحسني، وآل الشيباني، وقد برز من هذه الأسر في الحياة العلمية علماء وفقهاء وقضاة، كما برز منهم في الحياة الاجتماعية وجهاء شغلوا أرقى المناصب الإدارية في عصر المماليك.

بالإضافة إلى بعض القبائل العربية من قبائل حرب، وثقيف، وجهينة، وسُليم، وعتيبة، وهذيل، وكنانة وقبائل جبال السراة كقبائل زهران، وغامد، بجيلة.

٣. **المجاورون:** وتتكون هذه الطبقة من التجار الذين اشتغلوا بالتجارة، وبعض الصناعات، منهم من وصل إلى مكة المكرمة من بلاد المشرق أو المغرب بقصد طلب العلم على علماء مكة في مواسم الحج، وهم من أجناس متنوعة من الأبيض والأسود، والعربي والأعجمي، ومن أشهر هؤلاء المجاورين الهنود، والأفارقة، وبلاد جنوب شرق آسيا، فبرز منهم علماء كالعسقلاني، والطبراني، والبخاري، النيسابوري، والترمذي ـ وغيرهم من العلماء الذين كان لهم الكثير من الجهود التربوية في مكة المكرمة.

٤. **طبقة العبيد والموالي:** وهذه الطبقة تضُم أجناساً مختلفة منهم الفرس، والروم، والبربر، والأتراك والأحباش، والنوبة، والزنج، وهذه الطبقة لم يكن مرغوباً في بعضٍ منهم، " فقد أسهم العبيد في إثارة الفوضى بمكة وكانوا يأخذون أموال التجار، ويسلبون الناس ما معهم، إذ وقف بعض العبيد على تاجر ليأخذ قماشه فمنعه التاجر فضربه العبد ضرباً مبرحاً فثار الناس واشتبكوا مع العبيد، فأرسل أمير الركب المصري مماليكه إلى العبيد فقبضوا على بعضهم، وفر الباقي بعد أن خرجوا.. ." ([٥٩]).

([55])النبهاني: الشرف المؤبد لآل محمد، ص٨٢.
([56])النبهاني: الشرف المؤبد لآل محمد، ص٨٢.
([57])حقي: إسماعيل، أشراف مكة المكرمة وأمراؤها، ص١٤.
([58])ابن فهد: إتحاف الورى، (٣ / ٢٧١).
([59])الخزرجي: القعود اللؤلؤية، (١ / ٢٦٨). وانظر الفاسي: شفاء الغرام، (٢ / ٢٤٣).

وتُشير المصادر التاريخية إلى نبوغ بعض الموالي منهم: "مفتاح بن عبدالله البليني المعروف بالزفتاوي نائب مكة كان من موالي الشريف أحمد بن عجلان فأعطاه لأخيه الشريف حسن بن عجلان وهو صغير، فنشأ في خدمته حتى كبر

فظهرت عليه بوادر النجابة والشهامة والشجاعة، فأعجب به مولاه الشريف حسن بن عجلان، وقدمه في كثير من أموره وحروبه، واستنابه على مكة مرتين، وكانت نيابته الأخيرة سنة ٨٢٠هـ"([٦٠]).

طبقة العامة: وهم السواد الأعظم من سكان البلد الحرام، وغالبيتهم يشتغلون بالفلاحة، والصناعة، والرعي إلَّا أن من يعمل بالفلاحة قلة منهم، وذلك لطبيعة مكة المكرمة الصحراوية، ولقلة مواسم الأمطار فيها، وغالبية من يعمل بالفلاحة كانوا يعملون في البساتين والمزارع القريبة من مكة.

وغالبية من كان يعمل من هذه الطبقة كانوا يعملون في الرعي، وهي الحرفة المفضلة لديهم نظراً للبيئة التي كانوا يعيشون فيها، وأنها توفر للأعرابي الحرية التي لا يتمتع بها الفلاح"([٦١]).

وكانت هذه الطبقة طبقة فقيرة، مما جعل صغارهم يعملون مثل الكبار لسد الحاجة والعوز، وقد وصف ابن بطوطة أبناء هذه الطبقة ووضعهم الاجتماعي في مكة المكرمة فقال: "الصغار الذين كانوا يقعدون بالسوق، ومع كل واحد منهن قفتان كبرى وصغرى، فيأتي الرجل فيجعل الحبوب في إحدى قفتيه، واللحم والخضر في الأخرى، ويوصل ذلك إلى دار الرجل ليهيأ له طعامه منها، ويذهب الرجل إلى طوافه وحاجته محفوظة فلا يذكر أن أحداً من الصبيان خان الأمانة في ذلك قط، بل يؤدي ما حمل على أتم الوجوه، ولهم على ذلك أجرة معلومة من المال"([٦٢]).

- **الوظائف والحِرَف التي عمل بها أهل مكة:**

كان أهل مكة يعملون في بعض الوظائف الإدارية، والعسكرية، والدينية، والسياسية، وكما عمل بعضهم في الحرف اليدوية. وقد ذكر المقريزي في كتابه (المواعظ والاعتبار) ما يقارب السبعين من الوظائف.

" فقد كان للمسجد الحرام موظفون يُعرفون باسم أرباب الوظائف، أو أرباب الشعائر، تضم هذه الفئة من الموظفين أئمة المذاهب الأربعة: الشافعي، والحنفي، والمالكي، والحنبلي، وتشمل الخطباء الثلاثة، والفرّاشين والبوابين. وكان منهم قاضي القضاة ونوابه، والقضاة الأربعة، وأئمة المسجد الحرام، والخطباء، وفاتح الكعبة والمؤذنون، والوقادون، والفراشون، والمشايخ المدرسون"([٦٣]).

وهنا نذكر بعضاً من تلك الوظائف حيث " كان تعيين المؤذن وعزلة في العصر المملوكي كان يتم بقرار من القاضي الشافعي، ويقوم المؤذن بعد صدور القرار بالدعاء للسلطان.. .، وقد حدد المماليك رواتب المؤذنين، ففي وثيقة الأشرف شعبان أشير إلى رواتب خمسة من المؤذنين بمبلغ ألفي درهم سنوياً"([٦٤]).

وكان القضاء والخطابة من أجل الوظائف الدينية في عصر المماليك، وكان القضاء على المذهب الشافعي، حتى استحدث سنة ٦٦٣هـ تعيين أربعة قضاة على المذاهب الأربعة، ويرأسهم القاضي الشافعي الذي كان يُسمى قاضي القضاة، وكان منصب القضاء في مكة بالوراثة في الأسرة

([60])الفاسي: العقد الثمين، (٧ / ٢٦٤).
([61])جميل حرب: بلاد الحجاز واليمن، ص٢٣٠.
([62])ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، (١ / ١٦٨).
([63])ابن فهد: نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى، (٢ / ٦١٣).
([64])القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين، ص٩٨.

الواحدة، وعلى الرغم من أن أمر تعيين القاضي يصدر بأمر تعيين من السلطان المملوكي، إلَّا أنَّ هذا المنصب كان لا يتعدى بعض الأسر المكية العريقة، كأسرة الطبري، وأسرة آل نويرة، أسرة آل ظهيرة، وكان يُصرف للقاضي راتباً شهرياً أو سنوياً من أموال الوقف يُقدر بألف درهم نقرة سنوياً"([٦٥]) وكان من مهام القاضي الاشتغال بالعلم الشريف ونشره، وقد يجمع القاضي إلى وظيفته الخطابة أيضاً.

وأما إمامة المصلين في المسجد الحرام فقد كانت من أجل الوظائف، فقد كان إمام المسجد الحرام يقوم بإمامة المصلين في الصلوات الخمس، والتراويح في رمضان، وكان الناس في مكة يُصلون خلف إمام واحد خلف مقام إبراهيم حتى أحدثت بدعة المقامات في المسجد الحرام، فأنشئت حول الكعبة أربعة مقامات لكل مذهب من المذاهب الأربعة وكان يُضاف إليها مقام خامس هو مقام الزيدية، وقد عُرفت وظيفة الإمامة في المسجد الحرام نظام الوراثة، ونظام النيابة في الإمامة، فللإمام أن يعين نائبه، وعادة ما يكون ولده، أو أحد أقاربه، وحُدد ما يُصرف على أربعة من أئمة المسجد الحرام لإمامة الصلوات الخمس أربعمائة درهم نقرة، لكل منهم ما يُعادل ثلاثة وثلثين وثلث الدرهم شهرياً"([٦٦]).

أما وظيفة البوابين في المسجد الحرام، فقد نصت وثيقة وقف الأشرف شعبان على تخصيص مبلغ ألفي درهم للبوابين بالمسجد الحرام، علماً بأن أبواب الحرم الشريف قد كثرت واتسعت فأصبح عددها تسعة عشر باباً.

وكانت وظيفة الفراشة في المسجد الحرام " تُعنى بالمحافظة على نظافة المسجد الحرام وكنسه، كما يشارك فراشو المسجد الحرام في غسل الكعبة المشرفة، وقد يجمع بعض الفراشين مع وظيفتهم هذه التكبير بأحد المقامات

وممن تولى ذلك عبد الله بن محمد بن علي المصري المكي، الذي كان فراشاً بالمسجد الحرام، ومكبراً بمقام الحنابلة، وجمع بين الفراشة والأذان: أحمد بن سالم بن ياقوت المكي، ويرأس الفراشين بالمسجد الحرام رئيساً يُسمى شيخ الفراشين وتُسمى وظيفته مشيخة الفراشين"([٦٧]).

وكانت وظيفة الوقادة في المسجد الحرام مهمة من يعمل بها وضع الزيت في القناديل وإشعالها لتضيء جوانب المسجد الحرام ليلاً، "وكان للوقادين شيخ مسئول عنهم، يُعرف بشيخ الوقادين ينظمهم، وممن شغل هذه الوظيفة محمد الشهيب بن يوسف بن غليظة المتوفى سنة ٨٩٠هـ"([٦٨]).

وكانت وظيفة السقاية أو الزمازمة من وظائف المسجد الحرام، لأن السقاية مرتبطة ببئر زمزم، " وأول ما ذُكر في المصادر عن هذه الوظيفة في عصر المماليك يعود لسنة ٧٣٠هـ حيث قدم من العراق إلى مكة علي بن محمد البيضاوي الذي عُرف فيما بعد بالزمزمي، فصار له ولأبنائه الذكور أمر بئر زمزم، وسقاية العباس"([٦٩]).

كما عمل أهل مكة في الوظائف الموسمية وتأدية الخدمات اللازمة للحجاج، من طوافة، وأدلة، ومطوفين، وغيرها من الأعمال التي تُعد من خدمات الحجاج والمعتمرين، وقد كان أهل مكة يُعلمون أبناءهم المناسك والمسالك لإرشاد الحجاج في مواسم الحج.

([65])القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين، ص١٠٠.
([66])ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، (١٠ / ٣٣٣). وانظر القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين، ص٩٩.
([67])ابن فهد: الدرر الكمين، ص٣٦. وانظر السخاوي: الضوء اللامع، (٨ / ١٧٣).
([68])ابن فهد: بلوغ القرى، ورقة ٢٧.
([69])عبد الله غازي: إفادة الأنام، (١ / ٥٥٢). وانظر الفاسي: العقد الثمين، (٦ / ٢٣٠).

وعملوا بالتجارة، والفلاحة، والرعي، ودباغة الجلود، والصنائع والحرف اليدوية، حتى اشتهرت بعض الأسر المكية ونسبوا إلى صنائعهم كأسرة الخياط، والحداد، والعطار، النحاس، والجوهرجي، والدباغ.

- **ملابس وأزياء المجتمع المكي:**

الإنسان اجتماعي بطبعة، يعيش في مجتمعه فيتأثر بأفراد هذا المجتمع، ويُؤثر فيهم، ومكة المكرمة في عصر المماليك يفد إليها من كل فج عميق مئات الألوف كل عام لأداء مناسك الحج، أو يمُرون عليها للتجارة، فيستوطنها كل عام آلاف الأسر لا تغادرها، كل أسرة لها لباسها وزيها الخاص بها، ونتيجة لهذا الاتصال والتقارب عرفت مكة ثياب الكتان والحرير.

"وعرفت بلاد الحجاز العمائم المزركشة، ولبس الجُبة بما يُشبه شكلها في الوقت الحاضر، وقد وصف ابن بطوطة إمام المالكية بالمسجد الحرام بأنه كان يلبس جُبة بيضاء قصية من ثياب القطن تُسمى بالقفطان".

وكان سلاطين المماليك " يُهدون أشراف مكة وأمراءها أنواعاً من الثياب الموشاة بخيوط الذهب والفضة في مواسم الحج ومناسبات الأعياد"([٧٠]).

" وكان العلماء وطلبة العلم والمجاورون يلبسون ثياباً وجُبباً مصنوعة من الكتان، وغالباً كانوا يرتدون العمائم السود، وكان أهل مكة يعتنون بنظافتهم، ويستحسنون لبس الثياب البيض التي كانت تصنع في الغالب من الكتان والقطن، وقد وصف ابن بطوطة أهل مكة فقال: " أهل مكة لهم نظافة في الملابس، وأكثر لباسهم البياض، فترى ثيابهم أبداً ناصعة ساطعة"([٧١]).

أما لباس المرأة المكية في عصر المماليك فكان يتكون من ملاءة فضفاضة وقميص مشقوق عند الرّقبة عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة في البرد. وإذا خرجت من بيتها ترتدي ملاءة طويلة تغطي جسمها وتحفظ ملابسها، وتلف رأسها بمنديل فوق الرقبة"([٧٢]).

وأمَّا لبس المرأة المكية في الاحتفالات والمناسبات فغالباً من الحرير والكتان، وترتدي معه أجمل أنواع الحُلي ويصف الرحالة ابن جبير خروج المرأة الحجازية لتأدية العمرة الرجبية بقوله: " قد امتلأت هوادج مشدودة على الإبل مكسوة بأنواع الحرير، وغيرها من ثياب الكتان الرفيعة بحسب سعة أحوال أربابها ووفرهم، كل يتألق ويحتفل بقدر استطاعته، فأخذوا في الخروج إلى التنعيم ميقات المعتمرين فسالت تلك الهوادج في أباطح مكة، وشعابها والإبل قد زينت تحتها بأنواع التزين، وأشعرت بغير هدى بقلائد رائعة المنظر من الحرير وغيره"([٧٣]).

- **عادات واحتفالات المجتمع المكي:**

كان من عادات أهل مكة الاحتفال بمجموعة من المناسبات، فكان من عادات المجتمع المكي إذا دخل شهر رمضان اسرجوا المصابيح وأوقدوا الشموع، وكان ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان يُوقد سطح المسجد الحرام كله وسطح المسجد الذي بأعلى جبل أبي قبيس، ويقيم المؤذنون ليلتهم في تهليل وتكبير وتسبيح، والناس ما بين طواف وصلاة، وذكر ودعاء. فإذا صلوا

([70])السباعي: أحمد، تاريخ مكة، (١ / ٢١٧).
([71])ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، (١ / ١٦٩). وانظر البتانوني: الرحلة الحجازية، ص٥١.
([72])حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، (٢ / ٤٢٩).
([73])ابن جبير: الرحلة، ص١٠٧.

صلاة الصبح شرعوا في استقبال يوم العيد، ولبسوا أحسن ثيابهم، وبادروا لأخذ مجالسهم بالحرم الشريف يصلون به صلاة العيد"([٧٤]).

وكان أهل مكة يحتفلون في أول أيام شهر ذي الحجة المبارك بضرب الطبول في أوقات الصلوات بكرة وعشية إشعاراً بموسم الحج المبارك، وتستمر الاحتفالات حتى الصعود إلى عرفات، وفي التاسع من شهر ذي الحجة يقف الخطيب عقب صلاة الظهر فيلقي خطبة يشرح للمسلمين فيها مناسك الحج، ثم يأخذون في أداء شعائره ويضحون أضحيات العيد، بعد رميهم الجمار بمنى"([٧٥]).

وكان من عاداتهم الاحتفال باستقبال محمل كسوة الكعبة المشرفة، حيث يُجهز في كل عام المحمل من الديار المصرية إلى الحجاز لكسوة الكعبة المشرفة، فيخرج الناس مع أمير مكة وأفراد حاشيته، ثم تُؤخذ الكسوة وتوضع على سطح البيت الكريم إلى اليوم الثالث من عيد الأضحى، حيث يأخذ الشيبيون في إسبالها على الكعبة الشريفة. وعندما تُكسى الكعبة تُشمر أطرافها صوناً لها من أيدي الناس"([٧٦]).

وإذا هَلَّ هلال شهر رجب أمر أمير مكة بضرب الطبول والبوقات احتفالاً بدخول الشهر، ثم يخرج في أول يوم منه راكباً ومعه أهل مكة فرساناً ورجالاً على ترتيب عجيب، وكلهم بالأسلحة يلعبون بين يديه، والفرسان يجولون ويجرون، والرجال يتواثبون ويرمون بحرابهم إلى الهواء. وأميرا مكة وأولادهما وقوادهما يتقدمون وبين أيديهم الرايات والطبول والدباب، وعليهم السكينة والوقار، حتى يصلوا إلى الميقات، ثم يأخذوا بالرجوع بنفس ترتيبهم إلى المسجد الحرام فيطوف الأمير بالبيت الحرام، والمؤذن الزمزمي بأعلى قبة زمزم يدعو له عند كل شوط.." ([٧٧]).

([74])ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، (١ / ١٨٦).
([75])ابن بطوطة: المرجع السابق، (١ / ١٨٥).
([76])القلقشندي: صبح الأعشى، (٤ / ٢٧٦). وانظر ابن بطوطة: المرجع السابق، (١ / ١٨٩).
([77])ابن بطوطة: المرجع السابق، (١ / ١٨١).

المبحث الثاني: معالم الجهود التربوية في المسجد الحرام في عصر المماليك.

على الرغم من الحياة السياسية المضطربة في مكة المكرمة في عصر المماليك، إلَّا أن الحياة العلمية والجهود التربوية كانت مزدهرة، ولعل من أهم وأبرز معالم ازدهار الجهود التربوية في المسجد الحرام في عصر المماليك ما يأتي:

أولاً: المجاورون: تُعد المجاورة من الظواهر العلمية التي كانت منتشرة في مكة المكرمة وأثرت تأثيراً ايجابياً في نشر الجهود التربوية في عصر المماليك، اقتضتها الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية التي كان يعيشها العالم الإسلامي فترات الحروب الصليبية وغزو التتار للعالم الإسلامي، بل لقد عُرفت المجاورة للمسجد الحرام كظاهرة اجتماعية منذ بزوغ شمس الإسلام، فكان مصطلح المجاورة يطلق على كل من أقام في الحرمين الشريفين مدة من الزمن، قصيرة كانت تلك الفترة أم دائمة. وكان من هؤلاء المجاورين التجار والعلماء وطلاب العلم.

ومن أهم أسباب ودوافع المجاورة في المسجد الحرام فقد كانت متنوعة ومختلفة، منها دوافع سياسية، وأخرى دينية وعلمية، ولعل من أبرز أسباب ودوافع المجاورة ما يأتي:

- **الحروب التي شهدها العالم الإسلامي**: وذلك على يد جيوش الصليبين والمغول والتتار، وتتابع سقوط المدن الإسلامية في النصف الأول من القرن السابع الهجري، حيث سقطت قرطبة سنة ٦٣٣هـ، ثم سقطت بلنسية سنة ٦٣٦هـ، تبعها سقوط أشبيلة سنة ٦٤٦هـ، مما دفع العلماء وطلاب العلم، وبعض الأسر لمغادرة تلك المدن إلى مكة المكرمة مجاوراً فيها حتى وفاته.
- **الازدهار الاقتصادي بمكة المكرمة:** حيث سبق الإشارة إلى الحياة الاقتصادية ورغد العيش والرخاء والخيرات التي كانت في مكة المكرمة، والصدقات والهبات والأوقاف التي كانت تصل لأهل مكة من ملوك وسلاطين وأثرياء العالم الإسلامي رغبة في الأجر من الله- عز وجل – مما كان من أهم أسباب مجاورة كثير من العلماء وطلاب العلم للمسجد الحرام.
- **الحركة العلمية والثقافية بمكة المكرمة:** حيث اهتم سلاطين المماليك، وأمراء الأشراف والأغنياء والأثرياء ببناء المدارس، وانتشار المكتبات، وخزائن الكتب في مكة المكرمة، وكثرة العلماء سواء كانوا من أبناء مكة، أو من العلماء الذين يفدون إليها لأداء فريضة الحج، فيجاورون بالمسجد الحرام فترة من الزمن للتدريس والتعليم، مما رغب كثيراً من طلاب العالم للمجاورة في مكة المكرمة بهدف الاستفادة العلمية من أولئك العلماء.
- **أسباب ودوافع دينية:** ومن ذلك حرص كثير من المسلمين ورغبتهم في أداء فريضة الحج،، وكذلك شكل الرغبة في العبادة والصلاة في المسجد الحرام دافعاً قوياً حرك شريحة كبيرة من العلماء وطلاب العلم للمجاورة في المسجد الحرام، خاصة إذا علمنا أن صلاة في المسجد الحرام تعدل في الأجر مائة ألف صلاة فيما سواه من المساجد. وكذلك رغبة بعض العلماء تولي بعض المناصب الدينية مثل: القضاء، وإمامة الناس، والخطابة، أو التدريس بالمسجد الحرام.
- **الرغبة في التجارة وطلب الرزق**[٧٨]: فمكة المكرمة حباها الله موقعاً جغرافياً مميزاً، حيث تقع بالقرب من البحر الأحمر، الذي يُعد أهم الطرق البحرية للتجارة العالمية لبلاد الهند والصين وأوروبا ومصر والشام وجنوب شرق آسيا، مما جعلها عاملاً مغرياً لجذب عدد من التجار

([78])الذهبي: العبر في خبر من غبر، (٣ / ٦٦). وانظر الفاسي: العقد الثمين، (٥ / ٣٩).

المهتمين بطلب العلم إلى مكة، فجمع هؤلاء بين طلب الرزق وتحصيل العلم ونشره، والتقرب إلى الله بأداء فريضة الحج، والصلاة في المسجد الحرام.

- **وأمَّا الأمصار التي قدم منها المجاورون:**

تنوعت الأمصار والبلاد التي قُدِمَ منها لمجاورة المسجد الحرام، فمنها: العراق، والشام، ومصر واليمن وبلاد الأندلس، والمغرب العربي، وبلاد المشرق الإسلامي، وبلاد فارس، وبخاره، وسمرقند، ونيسابور، بلاد السند والهند، وتركيا، وروسيا، والتركمان، ودول جنوب شرق آسيا.. . مع الإشارة هنا إلى أنَّ هؤلاء المجاورين تفاوتت مدة مجاورتهم للمسجد الحرام، فمنهم من جاور سنة أو أقل، ومنهم من جاور سنتين أو ثلاث، ومنهم من بلغت مجاورته عشر سنين أو أكثر، ومنهم من جاور المسجد الحرام حتى توفاه الله تعالى.

وتُشير كُتب السير والتراجم التي تم الوقوف عليها أن المجاورة لم تقتصر على العلماء وطلاب العلم من الرجال فقط، بل وجد من النساء من جاور المسجد الحرام، فقد ذكر الفاسي " أن دار الأرقم بن أبي الأرقم طرأ عليها عدد من التحسينات والتجديدات في مراحل مختلفة، وكان ممن عمرتها أيضاً مجاورة يقال لها مرة العصماء"([79]).

كما أن أعمار المجاورين للمسجد الحرام تتفاوت وتختلف، فمنهم من قدم للمجاورة وهو في سن صغيرة فنشأ وترعرع في مكة، مثل: " قيصر بن أقسنقر عبد الله التركماني (ت ٦٤٧هـ) الذي جاور أكثر من ستين سنة في مكة وجابر بن أسعد بن جابر الحميري الحضوري (ت ٦٤٩هـ) الذي جاور مكة وعمره عشرين سنة، ومحمد بن أحمد بن علي بن محمد القسطلاني (ت ٦٨٦هـ) الذي حُمل إلى مكة وعمره خمس سنوات "([80]).

ومنهم من خرج إلى مكة للمجاورة بعد أن أحس بدنو أجله، مؤملاً أن تدركه الوفاة في مكة المكرمة، مثل: " عبد المحسن بن العميد بن خالد الأبهري الحفيفي (ت ٦٢٤هـ) الذي جاور المسجد الحرام سنة ٦٢٣هـ، ثم مات في السنة التالية. وكانت المجاورة غالباً ما تكون بعد أداء فريضة الحج، أو تكون مع قدوم قوافل التجارة إلى مكة، ومنهم من يأتي مع قوافل المعتمرين التي تأتي قبل بدء موسم الحج بفترة طويلة"([81]).

- **المجاورون وجهودهم التربوية والعلمية:**

كان أكثر المجاورين بالمسجد الحرام من العلماء وطلاب العلم بمختلف أنواعه وفروعه، وقد كان المسجد الحرام في عصر المماليك جامعة علمية لا تعْرف السكون، ولا تُغْلق أبوابها ساعة من ليلٍ أو نهار، فقد كان العلماء من بعد صلاة الفجر ما بين تدريسٍ وتعليم وإجابة لأسئلة الطلاب والمصلين، ومنهم من جالس للإفتاء، أو القضاء.

فمن العلماء المجاورين من "جلس لتعليم الصبيان القرآن الكريم كالشيخ برهان الدين إبراهيم المصري، مقرئ مجيد يسكن رباط السدرة، ويقصده أهل مصر والشام بصدقاتهم، ويُعلم الأيتام كتاب الله تعالى، ويقوم بمؤنتهم وكسوتهم ". كان الشيخ برهان الدين العجمي الواعظ يُنصب له كرسي باتجاه الكعبة الشريفة، فيذكر الناس بلسان فصيح وقلب خاشع يأخذ بمجامع القلوب.

([79])**موسوعة مكة المكرمة والمدينة المنورة، (٢ / ٢٩٢). وانظر الفاسي: شفاء الغرام، (١ / ٤٤٠).**
([80])**الفاسي: العقد الثمين، (٧ / ٨١)، (٣ / ٤٠٠)، (١ / ٢٢١).**
([81])**ابن جبير: الرحلة، ص٤١ – ٥٧. وانظر الفاسي: العقد الثمين، (٥ / ٤٩٤)، (٦ / ٢٦٣).**

وجلس الشيخ محمد بن أحمد بن موسى بن عبد الله الكفيري لتعليم الناس الفقه، حج وجاور بمكة وجمع شرحاً على البخاري، وصنف كتاب " معين النتيه على معرفة التنبيه "، توفي سنة ٨٣١هـ"([٨٢]).

وجاور بالمسجد الحرام الشيخ علي بن إسماعيل القلقشندي المولود سنة ٧٨٨هـ، حج وجاور وأُخِذ منه العروض وكان له إلمام بالحساب والجبر والمقابلة".

" وأقام الشيخ إبراهيم بن عبد الكريم الكردي الحلبي بمكة فترة، فكان حسن الخلق كثير البشر بالطلبة الذين انتفعوا به كثيراً في عدة فنون منها المعاني والبيان، وقد توفي سنة ٨٤٠هـ "([٨٣]).

ومن الجهود التربوية التي كانت في المسجد الحرام طلب علم الحديث وسماعه على كبار علماء المسجد الحرام ومن ذلك " الشيخ أحمد بن علي بن عمر بن أحمد بن أبي بكر بن سالم الحميري اليمني، ولد سنة ٧٨١هـ، قدم مكة المكرمة، وسمع بها من القاضي زين الدين أبي بكر المراغي صحيح ابن حبان، والبخاري. وسمع من الشريف عبد الرحمن الفاسي صحيح البخاري، وقد حدَّث بمكة المكرمة بكتب الحديث الستة، وجلس مدة طويلة بالحرم يؤدب الأطفال سنة ٨٦٣هـ"([٨٤]).

وتصدر للتدريس بالمسجد الحرام الشيخ عبد الرحمن بن أحمد بن يوسف بن عياش الدمشقي الأصل المكي الشافعي ولد سنة ٧٧٢ه بدمشق، وجاور بمكة مدة طويلة من سنة ٨٠٩هـ، وتصدى لتدريس الطلبة في الحرمين ليلاً ونهاراً فانتفع به كثير من أهل مكة والقادمين إليها، وصار شيخ الإقراء بالحرم، توفي سنة ٨٥٣هـ"([٨٥]).

أما الخطابة في صلاة الجمعة والعيدين، وفي عرفات ومنى أيام موسم الحج من كل عام، فقد كانت من المعالم التربوية للمجاورين بالمسجد الحرام، حيث كان الخطيب يقوم بتعليم الناس أمور دينهم عبر منبر الجمعة ويرشدهم وينصح لهم، ولأهمية هذه المهمة في مجال التربية والتعليم كان لا يتولى وظيفة الخطابة في المسجد الحرام إلَّا عالماً متبحراً في العلم صاحب ديانة مشهود له بالصلاح والاستقامة، وكان منصب خطيب المسجد الحرام يصدر به مرسوماً من سلطان المماليك في مصر، ولا يتولاها إلَّا كبار علماء مكة الشافعية. ففي سنة ٨١٦هـ وصل للقاضي عز الدين النويري – وهو من العلماء المجاورين – مرسوم بتولية الخطابة"([٨٦]).

ومن الجهود التربوية في عصر المماليك العناية بالصَّلوات الخمس، وصلاة العيدين، وصلاة التراويح في رمضان والتي تُمثل معلماً تربوياً من معالم المسجد الحرام منذ بزوغ فجر الرسالة ولا زالت إلى يومنا هذا، فيجتمع آلاف المصلين خلف إمام واحد يسمعون آيات الله تتلى عليهم في خشوعٍ وسكينةٍ.

وكان الناس في المسجد الحرام يصلون خلف مقام واحد هو مقام إبراهيم عليه السلام حتى أحدثت بدعة المقامات الأربعة. فأنشئت حول الكعبة المشرفة أربعة مقامات لكل مذهب من مذاهب أهل السنة الأربعة: فمقام للشافعية ومقام للمالكية، ومقام للحنفية، ومقام للحنابلة.

([82])ابن جبير: الرحلة، ص٤١ – ٥٧. وانظر الفاسي: العقد الثمين، (٥ / ٤٩٤)، (٦ / ٢٦٣).
([83])السخاوي: الضوء اللامع، (١ / ٧٠).
([84])السخاوي: الضوء اللامع، (١ / ٥٩).
([85])السيوطي: نظم العقيان، ص١٢٢. وانظر حاجي خليفة: كشف الظنون، (٢ / ١٣٩).
([86])ابن فهد: إتحاف الورى، (٣ / ٥٠٩). وانظر الفاسي: العقد الثمين، (١ / ٣٧٤).

ويعين الإمام أو يُخلع بقرار من السلطان المملوكي في مصر، وولي إمامة الصلاة بالمسجد الحرام علماء من المجاورين، " فقد تولى الشهاب أحمد بن الضياء بن التوروزي القسطلاني إمام المالكية في المسجد الحرام بعد أبيه، ولما توفي سنة ٦٧١هـ خلفه أخوه البهاء عبد الرحمن بن الضياء القسطلاني.

وفي سنة ٧٦٠هـ تولى إمامة المالكية عمر بن عبد الله المالكي بعد وفاة عمه خليل بن عبد الرحمن المالكي وذكر الفاسي: " أن للإمام أن يعين نائباً، وعادة يكون ولده، أو أحد أقاربه، وإن مات أحد المشاركين في منصب الإمامة فإن أبناءه عادة يخلفونه، وقد يكون النائب أحد العلماء المجاورين"([87]).

وتُشير المصادر إلى أن سلاطين المماليك كانوا يُقدرون هذه الجهود التربوية للعلماء المجاورين بالمسجد الحرام فأولوا المجاورين من العلماء وطلاب العلم رعايتهم ومحبتهم، واعتنوا بتلمس حاجاتهم، وقضاء حوائجهم ففي سنة ٧٠٣هـ أمر الأمير رسلان نائب السلطنة بمصر بكتابة أسماء المجاورين بمكة المكرمة، وقضى عنهم جميع ما كان عليهم من الديون لأربابها، وأعطى لكلٍ منهم بعد قضاء دينه مئونة سنة"([88]).

وفي المقابل نجد أن بعض أمراء مكة وأشرافها لا تروق لهم هذه الجهود التربوية، والنشاط العلمي للعلماء المجاورين بالمسجد الحرام إما لأسباب دينية كمحاربة هؤلاء العلماء للبدع المحدثة التي أحدثها بعض أهل مكة المكرمة، أو الوافدين للحج أو العمرة، أو التجارة، أو لأسباب سياسية تتمثل في محبة عامة أهل مكة المكرمة لهؤلاء العلماء المجاورين، الأمر الذي حرك غيرة الأمراء والأشراف.

فقد ذكر المقريزي " أن بعض العلماء المجاورين في عهد أميري مكة الشريف حميضة وأخيه الشريف رميثة حينما اشتكى المجاورون منهما للسلطان المملوكي في مصر، الذي أرسل إلى مكة عسكراً جراراً من المماليك الأتراك ثلاثمائة وعشرون فارساً وخمسمائة فارس لتأديب أميري مكة وعزلهما"([89]).

ولما ذهب الملك الناصر محمد بن قلاوون لتأدية فريضة الحج سأله المجاورون أن يترك لهم عسكراً لحمايتهم من ظلم وقسوة أمير مكة، فجرّد السلطان ممن كان معه الأمير شمس الدين آق سنقر ومعه مائة فارس لحمايتهم"([90]).

ثانياً: الأسر العلمية:

تُعدُ الأسر المكية مظهراً من المظاهر التي أبرزت الجهود التربوية للعلماء في عصر المماليك، ظهر في مكة المكرمة أسر اهتم أفرادها بالعلم، وربت أبناءها على محبة العلم والعلماء، ومفهوم الأسر العلمية لا يقتصر على الابن والأب والجد فقط، ثم تنقطع سلسلة تلك الأسرة، بل المراد بالأسر العلمية: تلك الأسر التي امتد أثرها التربوي ونشاطها العلمي قرناً من الزمان فأكثر، وأنتسب أفرادها إلى أصل واحد ولها فروع متعددة.

مع التأكيد هنا أن بعض هذه الأسر العلمية تتابعت حلقاتها قرناً بعد قرن، وامتدت حتى عصر المماليك، وما بعده من القرون. وفي هذا المطلب سيذكر الباحث نماذج مشرقة لبعض علماء

([87])الفاسي: العقد الثمين، (٤ / ٤٢٣)، (٣ / ١١٨). وانظر ابن فهد: إتحاف الورى، (٣ / ٢٧٩)، (٣ / ٣٩١).
([88])ابن فهد: إتحاف الورى، (٣ / ١٣٩).
([89])المقريزي: السلوك، (٢ / ١٢٨)، ابن فهد: إتحاف الورى، (٣ / ٢٧٩)، (٣ / ٣٩١).
([90])المرجعين السابقين، نفس الصفحات.

هذه الأسر، وملامح من شخصيتهم التربوية ولعل من أبرز الأسر العلمية في عصر المماليك وأكثرها نشاطاً ما يأتي:

١. **أسرة الطبري:** " نسبة إلى طبرستان من بلاد خرسان، وهي بلاد واسعة عظيمة الحصون والجبال، فتحها المسلمون سنة ١٤٢هـ. وهي من أكبر الأسر التي جاورت المسجد الحرام، من حيث عدد أفرادها العلماء، ومن حيث امتدادها الزمني، فقد امتدت ستة قرون"([٩١]).

من أشهر علماء هذه الأسرة: " أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر الطبري المكي الشافعي الملقب بمحب الدين (ت ٦٩٤هـ). سمع بمكة على كثير من العلماء، وأجاز له خلق من بغداد والشام ومصر، وتفقه وحدّث ودرس، وأفتى إلى أن صار شيخ الحجاز في عصره بلا منازع"([٩٢]).

ومن الملامح التربوية في شخصيته أنه لم يُر إلَّا في علم أو عبادة، فقد اعتنى بطلب العلم ولم يُشغل نفسه بصغائر الأمور وحقيرها، قال عنه الفاسي نقلاً عن ابن عساكر: " لم أر المحب في وقت من الأوقات إلَّا في عمل من: صلاة، أو طواف، أو دعاء، أو تعليم علم، أو تصنيف، أو نحو هذا، وقال عنه الحافظ صلاح الدين العلائي: ما أخرجت مكة بعد الشافعي مثل المحب الطبري"([٩٣]).

ومن علماء هذه الأسرة أيضاً رضي الدين إبراهيم بن محمد بن أبي بكر بن محمد الطبري (ت٧٢٢هـ) أخذ العلم بالمسجد الحرام عن جماعة من علماء مكة والوافدين إليها قراءة وسماعاً صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن الترمذي، وأجازه جماعة من العلماء. وقد أثنى عليه غير واحد من العلماء، فقال الذهبي: " عالم، فقيه محدث، عابد ورع، كبير القدر"([٩٤]).

ومن ملامح شخصيته التربوية كما يصفها ابن حجر: " كان رصيناً منفرداً في الدين والعبادة، قل أن ترى العيون مثله في التواضع والوقار والخير ". ويعتبر من أشهر علماء هذه الأسرة من حيث التحديث والتدريس، وتأليف المؤلفات، وتأثيرهم التربوي والعلمي في مكة المكرمة"([٩٥]).

وبرز من هذه الأسرة في عصر المماليك علماء أجلاء كان لهم قصب السبق في نشر علم الحديث، وأصول الفقه والتفسير، وعلوم اللغة العربية، والأدب، وتولوا مناصب القضاء، وإمامة وخطابة المسجد الحرام، والتدريس، والإقراء " ولم يعرف التاريخ الإسلامي أسرة علمية قامت بمثل أعمال هذه الأسرة، واستمرت مثل هذه المدة "([٩٦]).

٢. **أسرة العسقلاني:** "نسبة إلى عسقلان: وهي مدينة في فلسطين من بلاد الشام، فتحها الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان ﷺ صلحاً في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ سنة ٢٣هـ واستمرت هذه الأسرة خلال العصر المملوكي، وقد عُرفت هذه الأسرة في مكة المكرمة بقلة أفرادها"([٩٧]).

([91])**الذهبي: تذكرة الحفاظ، (٤ / ١٤٧٤). وانظر الصفدي: الوافي بالوفيات، (٧ / ١٣٥) .**
([92])**المقريزي: السلوك، (٢ / ١٢٨)، ابن فهد: إتحاف الورى، (٣ / ٢٧٩)، (٣ / ٣٩١).**
([93])**الفاسي: العقد الثمين، (٣ / ٦٦).**
([94])**الذهبي: معجم الشيوخ، (١ / ١٥٠).**
([95])**ابن حجر: الدرر الكامنة، (١ / ٥٤).**
([96])**المقريزي: السلوك، (٢ / ١٢٨)، ابن فهد: إتحاف الورى، (٣ / ٢٧٩)، (٣ / ٣٩١).**
([97])**ياقوت الحموي: معجم البلدان، (٤ / ١٢٢).**

من أشهر علماء هذه الأسرة: " بهاء الدين عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن عبد الله العسقلاني (ت ٦٩٤هـ) سمع بالمسجد الحرام على رضي الدين وصفي الدين الطبريين صحيح البخاري، ورحل إلى دمشق، وحلب، ومصر، وسمع بها على جماعة من كبار علمائهم، وحدث مسموعاته في القاهرة، كما قرأ بالروايات، وقرأ المنطق ن وكان زاهداً انقطع للعبادة، وكانت بداية حياته في مكة، وله أراضٍ تأتيه من غلتها بوادي مر في مكة"([98]).

ومن علماء هذه الأسرة: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٧هـ) يُعد من أشهر علماء الإسلام، ومن أشهر المؤرخين في عصر المماليك، صاحب التصانيف والمؤلفات النافعة، ومن أبرزها: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الإصابة في تمييز أسماء الصحابة، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة والأعلام بمن ولي مصر في الإسلام، والإيناس بمناقب العباس، ورفع الأصر عن قضاة مصر"([99]).

والآثار التربوية للعلامة ابن حجر العسقلاني باقية إلى يومنا هذا، فلا تخلو جامعة إسلامية، ولا مركز علمي ولا مكتبة عالم من علماء عصرنا هذا؛ إلَّا وكتب ابن حجر العسقلاني جزء من أجزائها.

٣. **أسرة الفاسي:** نسبة هذه الأسرة يرجع إلى محمد بن أحمد بن علي بن محمد التقي الفاسي، الذي يرجع نسبه إلى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ، " وأول من نزل مكة من هذه الأسرة محمد بن محمد بن عبد الرحمن (ت ٧١٩هـ)، وذلك سنة ٦٨٧هـ، جاور بمكة، وابنه محمد (ت ٧٤٧هـ) سمع بمكة على شيوخها، والقادمون إليها وغالب مسموعاته كتب الحديث، وحدّث وروى عنه كثير من العلماء"([100]).

من أشهر علماء هذه الأسرة: سراج الدين عبد اللطيف بن محمد بن أحمد الفاسي (ت٨٥٣ه) ولي قضاء الحنابلة بمكة، ثم جُمع له قضاء الحرمين، فكان أول حنبلي انفرد بقضاء كل منهما، ومشايخه كثير سماعاً وإجازة في الحديث وغيره، وولي التدريس بالمدرسة البنجابية بمكة أول ما أنشئت، وكان له حظ وافر عند ملوك اليمن"([101]).

ومن علماء هذه الأسرة أيضاً: تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي (ت٨٣٢هـ) محدث ومؤرخ مكة المشرفة، ترك ثروة علمية عظيمة من المؤلفات، غلب عليه شهرته التاريخية، ومن أبرز مؤلفاته في تاريخ مكة المكرمة كتاب " شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ". وللفاسي شخصية تفرد بها في هذا الكتاب لتسجيله للأحداث التاريخية التي عاصرها، فهو يذكرها بتفصيل ودقة، تدل على عمق ثقافة التقي الفاسي"([102]).

٤. **أسرة ابن فهد:** وتنسب هذه الأسرة إلى محمد بن الحنفية نجل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ وأقدم من عُرف من هذه الأسرة جمال الدين محمد بن عبد الله (ت ٧٣٦هـ) وقد نبغ من هذه الأسرة عدد من العلماء والحفاظ، حملوا راية العلم والتدريس والخطابة والإفتاء. قال الكتاني: "إذا تأملت قلَّ أن تجد في بيت في الإسلام أربعة من الحفاظ في سلسلة واحدة يتوارثون الحفظ والإسناد غير هذا البيت"([103]). وفي هذا الكلام إشارة تربوية في غاية الأهمية تكْمُن في الآثار

([98])الفاسي: العقد الثمين، (٤ / ٤١٨).
([99])حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، (٢ / ٧٤٨).
([100])اليافعي: مرآة الجنان، (١ / ٣٥٨).
([101])ابن العماد: شذرات الذهب، (٧ / ٣٦١). وانظر الذهبي: معجم الشيوخ، (٢ / ١١٣).
([102])باز: عبد الكريم بن علي، مؤرخو مكة المكرمة وكتاباتهم التأريخية في القرن التاسع الهجري، ص٨٤.
([103])الكتاني: فهرس الفهارس، (٢ / ٩١٢).

التربوية التي تتركها الأسرة في نفوس أبنائها، مما جعل الكتاني يصف هذه الأسرة بأنهم توارثوا العلم لمكانتهم وفضلهم وجهودهم في تربية أبنائهم على العلم منذ نعومة أظفارهم.

من أشهر علماء هذه الأسرة: أبو الفضل تقي الدين محمد بن محمد بن محمد بن عبدالله بن فهد الهاشمي (٨٧١هـ) أخذ العلم عن كثير من علماء مكة والمجاورين بها، ورحل إلى اليمن وأخذ عن علمائها. وأكثر من ملازمة الشيخين الجمال بن ظهيرة، والخليل الأقفهي. دفعه حبه لعلم الحديث إلى تربية أولاده على طلبه فأسمعهم منذ الصغر ذكوراً وإناثاً

فقد ذكر الشمس ابن الجزري في خاتمة كتابه " المصعد لأحمد في ختم مسند الإمام أحمد " أن التقي ابن فهد قرأ عليه جميع المسند كاملاً، وسمع بقراءته جمع غفير، منهم أولاده: أبو بكر، وعمر، وأم هانئ، وأم البنين، وعثمان وسمعوه مرة أخرى بالمسجد الحرام سنة ٨٢٨هـ، وما زال التقي ابن فهد يطلب الحديث وعلومه، ويكد ويجتهد في طلبه حتى تميز فيه، وعرف عاليه من نازله، وشارك في فنون الأثر، وكتب بخطه الكثير من الكتب، وجمع المجامع، واختصر وانتقى، وخرَّج لنفسه ولشيوخه ممن بعده، كما سمع تاريخ المدينة على أبي بكر المراغي بالمدينة المنورة، وصار المعوَّل إليه في هذا الشأن ببلاد الحجاز قاطبة من دون منازع، وله الكثير من المؤلفات"([١٠٤]).

ومن علماء هذه الأسرة أيضاً: ابنه عمر بن فهد (ت ٨٨٥هـ) حيث أثمرت الجهود التربوية لوالده في حُسن تربيته له ولإخوانه وتربيتهم على حُب العلم والتعلم منذ الصغر أن أصبح هؤلاء الأبناء علماء المستقبل، وامتداداً لوالدهم بعد وفاته، " فقد أجاز له كثير من العلماء في السنوات الأولى من عمره، من مكة، والمدينة، والقدس، وحلب وحماة، وحمص، وبعلبك، والإسكندرية، وزبيد، وتعز، وغير ذلك من البلاد، كما قام بعدة رحلات علمية إلى هذه البلدان، وأخذ عن علمائها، وسمع عليه غير واحد من أهل مكة والقادمين إليها"([١٠٥]).

٥. **أسرة بن ظهيرة:** أسرة علمية مشهورة في مكة المكرمة، وصفهم السخاوي بالبيت الكبير([١٠٦])، وهي قبيلة بمكة المكرمة من بني مخزوم، وتُعد من أكثر الأسر المكية عدداً، منهم علماء، وحفظة، ومحدّثون، ومن أشهر من ألف عن هذه الأسرة العلمية المكية النجم ابن فهد في كتابه([١٠٧]): " المشارق المنيرة في ذكر بني ظهيرة ".

من أشهر علماء هذه الأسرة: محمد بن عبد الله بن ظهيرة بن أحمد القرشي المكي الشافعي، أبو حامد جمال الدين قاضي مكة وخطيبها ومفتيها، رحل في طلب العلم، ولشدة اهتمامه بتحصيل العلم والفهم أذن له غير واحد من كبار أهل العلم في زمانه بالتحديث والتدريس والإفتاء، وكانت له جهود تربوية في نشر العلم، وبثه بين أهله والراغبين فيه، ودرس الحديث أكثر من أربعين سنة، وازدحم عليه الطلبة من أهل مكة والقادمين إليها، ومن أشهر من استمع عليه الحافظ شهاب الدين ابن حجر، وذلك في مجاورته سنة ٧٨٥هـ([١٠٨]).

وقد أبدع السخاوي في وصفه فقال: "إماما، علامة، حافظاً متقنا، فصيحا، صالحا، خيرا، ورعا دينا متواضعا،، كثير المروءة، والبر، والنصح والمحبة لأصحابه، كثير التحقيق في درسه،

([104])ابن فهد: معجم الشيوخ، ص٢٨٣.
([105])ابن فهد: معجم الشيوخ، ص١٩٢.
([106])السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (١١ / ٢٥٦).
([107])الكتاب ما زال مخطوطاً، وقد ذكر بعض الباحثين أن الكتاب بعنوان: " البدور المنيرة في ذكر بني ظهيرة "، دون أن ينسبه إلى صاحبه. أنظر محمد الحبيب الهيلة، التاريخ والمؤرخون بمكة، ص١٥٤.
([108])ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، (٤ / ٦٧). وانظر المنهل الصافي، (٧ / ٢٧٤).

مواظبا على الاشتغال والإشغال حافظاً لكتاب الله، كثير التلاوة، مثابرا على أفعال الخير، مع السمت الحسن والوقار وسلامة الصدر"([109]).

٦. **أسرة النويري:** أصل هذه الأسرة مصرية، نسبة إلى نُوَيْر تصغير نورة، ناحية بمصر بصعيد مصر" قدم أحمد بن عبد العزيز بن القاسم بن عبد الرحمن العَقيلي الجَزُولي (ت ٧٣٧هـ) من مصر إلى مكة المكرمة، وتردد إلى المسجد الحرام مرات، وأقام بمكة وتأهل بها، وأنجب ذكوراً وإناثاً، وتولى التدريس بالمدرسة المنصورية "([110]).

من أشهر علماء هذه الأسرة: أبو الفضل محمد بن أحمد بن كمال الدين([111]) (ت ٧٨٦ه) قاضي مكة وخطيبها وعالمها، نال من العلم نصيباً وافرا واشتهر به، ذاع صيته وملئت شُهرته الآفاق، وقد درس وأفتى، وناظر وولي عدة وظائف بمكة، لم تجتمع لأحد قبله، فقد ولي قضاء مكة، وخطابة المسجد الحرام.

ومن جهوده التربوية أنه ولي تدريس المدارس المنصورية، والمجاهدية، والأفضلية، وهو أول من درس بالأخيرة وفوض إليه النظر في هذه المدارس، وولي أيضا تدريس درس بشير الجَمْدار مشافهة منه.

ومن جهوده التربوية أنه قام بتدريس الفقه للسلطان الأشرف شعبان، ولعل لتدريس الشيخ أبو الفضل للملك شعبان الفقه هو السبب في الجهود التربوية للملك شعبان الأشرف بالمسجد الحرام فهو الذي أقر درساً في المسجد الحرام بالمذاهب الأربعة، ودرسا في الحديث، وأقام مكتبا للأيتام، وأنشأ البيمارستان المنتصري لأهل بمكة"([112]).

ثالثاً: المدارس

يُعد إنشاء المدارس من أبرز معالم الجهود التربوية في المسجد الحرام في عصر المماليك، وهي ظاهرة تربوية تستحق الدراسة والتأمل، فقد كانت المدارس في مكة المكرمة، حول المسجد الحرام وملاصقة للمسجد تماماً، وكانت هذه المدارس تقوم بدورها التربوي ووظائفها في مجال التعليم في مختلف العلوم والمعارف، جنباً إلى جنب مع حلقات التعليم والتدريس في المسجد الحرام.

ولم تكن تلك المدارس قاصرة على تعليم علوم الشريعة فحسب، بل تنوعت مقررات التعليم والتدريس فيها، وتُشِير المصادر التاريخية إلى وجود مدارس بمكة المكرمة قبل عصر المماليك، وفي عصر المماليك استحدثت عدة مدارس أخرى، منها ما بناه ملوك الهند مثل: المدرسة الغياثية، الكَلَبَرجية، والخَلَجية، والكِثبايتية. ومنها ما بناه أعيان وسلاطين دولة المماليك، مثل: مدرسة الأشرف قايتباي، والباسطية، والجمالية، واليوسفية، ومدرسة العُطَيْفية([113]).

أمَّا عدد المدارس في عصر المماليك التي أمكن الوقوف عليها، فهي لا تقل عن سبع عشرة مدرسة، منها احدى عشرة مدرسة ذُكرت في كتب التراجم شيء عن أوجه نشاطها التربوي والعلمي، في حين أن هناك مدارس لم يُذكر شيء منها، سوى أنها بُنيت، أو تم تجديدها في عصر المماليك.

([109])السخاوي: الجواهر والدرر، (١ / ٢١٥).
([110])ابن حجر: الدرر الكامنة، (١ / ١٧٣).
([111])الفاسي: العقد الثمين، (١ / ٣٠٠). وانظر ابن حجر: الدرر الكامنة، (٣ / ٣٢٧).
([112])السخاوي: الجواهر والدرر، (١ / ٢١٥).
([113])معتوق: صالح يوسف علم الحديث في مكة خلال العصر المملوكي، ص٣٧٠.

كما أن مناهج التعلم التي كانت تُدرس في هذه المدارس، وأساليب وطرائق التدريس، وشروط القبول فيها، والمخصصات المالية التي تُصرف للمدرسين أو الطلاب، وإدارة شئون المدرسة، وغير ذلك لم يكن موحدا، بل تختلف من مدرسة إلى أخرى حسب ما يراه ناظر المدرسة.

فهناك مدارس خاصة بالمذهب الشافعي، وأخرى خاصة بالمالكية، ومنها مدارس خاصة بتدريس المذهب الحنفي، أو المذهب الحنبلي. كما كان هناك مدارس للصوفية، ومدارس خاصة بتدريس المذهب الزيدي، وكانت المدارس تحتوي على قاعات للدراسة، ومكتبة فيها مناهج التعليم التي تُدرس، وبها مرافق كثيرة مثل: دورات المياه، وسبيل يشرب منه الطلاب، ولها نوافذ مُطلة على المسجد الحرام، وكان لبعض المدارس أربطة لسكن الطلاب المجاورين بمكة المكرمة، وكان لبعض المدارس أوقاف يُصرف من ريعها رواتب المدرسين، ومكافآت الطلاب، ويُشترى له الكُتب، وكل ما يخص العملية التعليمية من أدوات دراسية كالأوراق، والأحبار، وأثاث، وفرش ونحو ذلك.

وفي هذا المطلب نحاول أن نذكر بعضاً من هذه المدارس وجهودها التربوية في عصر المماليك، ومن ذلك ما يأتي:

- **المدرسة الزنجيلية**([١١٤]): وهي نسبة إلى عثمان بن علي الأمير فخر الدين الزنجيلي نائب السلطان صلاح الدين الأيوبي بعدن، وبناها سنة ٥٧٩هـ، ووقفها على الحنفية، تقع عند باب العمرة، وتُعرف هذه المدرسة بدار السلسلة، وقد أصبحت بيد بعض الأشراف أولاد أمراء مكة، وبُنِي بمكة المكرمة لهذه المدرسة رباطاً وسبيلا. وكان مدرسو هذه المدرسة كلهم فقهاء أحناف، لأن المدرسة موقوفة عليهم.

وممّن درس بالمدرسة الزنجيلية صديق بن يوسف بن قريش أبو الوفاء الحنفي، وأحمد بن علي بن يوسف السجزي الحنفي (ت ٧٦٣هـ).

" ودرَّس بها الشيخ بدر الدين حسين بن أحمد بن محمد بن ناصر الهندي الأصل، المكي المولد والدار، الحنفي المذهب (ت ٨٢٤هـ). ومن جهوده التربوية في المسجد الحرام أنه كان – رحمه الله – يعظ الناس بالحرم الشريف وولي التدريس بهذه المدرسة، كما ولي نظر وقفها"([١١٥]).

ودرس بها القاضي شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد الصاغاني ضياء الدين الحنفي المكي (ت ٨٢٥هـ) كانت له نباهة في الفقه، ومن أبرز جهوده التربوية أنه حدَّث ودرس وأفتى، ودرس بالمسجد الحرام، كما قام بالتدريس في مدارس مكة المكرمة طيلة حياته العلمية"([١١٦]).

وتولى التدريس بهذه المدرسة أولاده: أبو البقاء بن الضياء محمد بن أحمد الصاغاني المكي (ت ٨٥٤هـ)، وكان ذا عناية بالحديث، والفقه، والتأليف. وله جهود تربوية في المسجد الحرام، وله مصنفات منها: البحر العميق في مناسك المعتمر والحاج إلى البيت العتيق.

وممن درس بالمدرسة بالمدرسة الزنجيلية أيضاً ابنه أبو البركات محمد بن أحمد بن محمد بن محمد الصاغاني الحنفي المكي (ت ٨٣٠هـ)" ([١١٧]).

([114])الفاسي: العقد الثمين، (١ / ١١٧). وانظر ابن فهد: إتحاف الورى، (٢ / ٥٤٩). الدارس في تاريخ المدارس، (١ // ٥٢٦). وذكرها أبو شامة: الروضتين، (٢ / ٢٦). ناجي معروف: المدارس الشرابية، ص٣٤٩.

([115])الفاسي: العقد الثمين، (٦ / ٣٥).

([116])الفاسي: العقد الثمين، (٣ / ١٦٩).

([117])السخاوي: الضوء اللامع، (٧ / ٨٦). وانظر ابن فهد: معجم الشيوخ، ص١٥ - ٢١٧.

- **المدرسة المنصورية**[118]**:** قال ابن فهد في حوادث سنة ٦٤١هـ: " وفيها عمر الملك المنصور عمر بن علي بن رسول صاحب اليمن مدرسة بالجانب الغربي من المسجد الحرام، وأوقفها على الفقهاء الشافعية، وغبطه ملوك الأرض على هذه المدرسة، وكانت ملاصقة لمدرسة الزنجيلي. وتُسمى أيضاً بالمدرسة المظفرية نسبة إلى ولده المظفر يوسف بن علي، لأنه عمل بها درس في الحديث، ويقال لها أيضاً المدرسة النورية نسبة لنور الدين لقب الملك المنصور

كان بهذه المدرسة سكنٌ وبئر، لأنه عندما حجت أخت السلطان المنصور وزوجته سنة ٦٤٥هـ نزلتا في هذه المدرسة، وسكنتا بها. وتُشير المصادر التاريخية أن الملك المنصور جعل فيها مدرساً، (ومعيداً)**، وإماماً، ومؤذناً ومقيماً ووقف عليها أوقافاً تقوم بكفايتها"[119].

وهذا يؤكد عِظَم ومستوى الجهود التربوية للمسجد الحرام في عصر المماليك، لأن مثل هذه المدرسة، وبهذا الوصف البديع تُعتبر جامعة في عصرنا الحاضر، وهذا الوصف يدل على سعتها وحجمها ومستواها العلمي، وإلَّا ما غبطه ملوك زمانه عليها، " وكان لهذه المدرسة نشاط كبير في تدريس الحديث الشريف، حدث وسمع بها علماء ومحدثون كبار من مكة المكرمة وخارجها"[120].

- **من أبرز العلماء الذين درسوا بالمدرسة المنصورية**[121]: جعفر بن عبد الرحمن بن جعفر السُلمي الصقلي البِجائي (٦٤٤هـ) نزل مكة، وسمع منه بالمدرسة المنصورية الحافظ شرف الدين الدمياطي. ومحمد بن عمر بن محمد ضياء الدين القسطلاني (٦٦٣هـ) كان شيخ الحديث بها.

والإمام محب الدين الطبري (٦٩٤هـ) الذي كانت له حظوة عند الملك المظفر، وكان يُحْسِن إليه كثيرا ورتب له في كل شهر خمسين دينارا لقاء تدريسه بالمنصورية. وبعد وفاة الإمام محب الدين تولى التدريس بالمدرسة المنصورية ولده الجمال بن محب الدين الطبري (٦٩٤هـ).

وولي التدريس بها الشيخ أحمد بن عبدالعزيز بن القاسم النويري (٧٣٧هـ). وقاضي مكة شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد الطبري (٧٦٠هـ) درس بها وبالمدرسة المجاهدية بتفويض من الملك المجاهد. ثم خلفه ابنه محمد النجم (٧٦٥هـ) بالمدرستين أيضا. وقد كان الشيخ الزاهد أبو الحسن على بن رزق الله الانجري له بيت في المدرسة المنصورية – المظفرية – يُعلم العلم فيها نهاراً، ويأوي بالليل إلى سكنه برباط ربيع.

- **المدرسة البنجالية**[122]**:** بناها الملك المنصور غياث الدين أبو المظفر، أعظم شاه من بلاد الهند صاحب بنجالة التي تقع في آسيا الجنوبية بين جبال الملايا وخليج بنغال، وهي من أكبر ولايات الهند.

اشتهر بحبه للعلم والعلماء، وعمل الخير، وكان يُرسل صدقاته إلى المسجد الحرام، وقد كلف خادمه ياقوت الحبشي باختيار موقع بناء المدرسة، فأرسله إلى مكة بهدية عظيمة إلى شريف

([118])ابن حجر: الدرر الكامنة، (٣ / ٣٢٧). وانظر ابن حجر: أنباء الغمر، (١ / ٢٩٦). السخاوي: التحفة اللطيفة، (٣ / ٤٧٤). الفاسي: شفاء الغرام، (١ / ٣٣٠).

** **المُعِيْد: هو من يُعِيْدُ على الطلبة ما ألقاه المدرس عليهم بعد انصرافه ليفهموه ويحسنوه. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ٥ / ٤٦٤.**

([119])يحيى بن الحسين: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، (١ / ٤٣٣).

([120])معتوق: علم الحديث في مكة المكرمة خلال العصر المملوكي، ص١٩٤.

([121])الفاسي: العقد الثمين، (٣ / ٤٢٦)، (٢ / ٢٣١). وانظر ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، (١ / ١٧٠).

([122])ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (١٥ / ١٩٢). وانظر الفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، (١ / ٥٢٤).

مكة الشريف حسن بن عجلان، وبعث معه خطاباً يطلب فيه من الشريف حسن بن عجلان بأن يُقدم العون لخادمه، ويعمل على تسهيل مهمته بشأن بناء المدرسة، وشراء أوقاف لها، وذلك سنة ٨١٣هـ.

وتم اختيار موقع بناء المدرسة بالجانب الجنوبي من المسجد الحرام، وتم استكمال بناء المدرسة البنجالية سنة ٨١٤هـ وكان التدريس فيها على المذاهب الأربعة، ولم يُتَعصبُ فيها لمذهب دون آخر، وهي مدرسة خاصة بتدريس الفقه فقط.

- **من أبرز العلماء الذين درسوا بالمدرسة البنجالية**([123]): جعل الملك المنصور غياث الدين مدرسي المدرسة البنجالية القضاة الأربعة بمكة المكرمة في ذلك الوقت، وهم: قاضي المذهب الشافعي جمال الدين محمد بن عبدالله بن ظهيرة، وقاضي المذهب الحنفي شهاب الدين أحمد بن الضياء، وقاضي المذهب المالكي تقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي، وقاضي المذهب الحنبلي سراج الدين عبداللطيف بن أبي الفتح محمد بن أحمد.

وذكر ابن فهد: " أن عدد الطلاب في هذه المدرسة ستون طالباً، منهم: عشرون طالباً من المذهب الشافعي، وعشرون من المذهب الحنفي، وعشرة من المذهب المالكي، وعشرة من المذهب الحنبلي"([124]).

وممن درس بهذه المدرسة " المحب ابن الجمال ابن ظهيرة الشافعي باشر التدريس فيها نحو عشر سنين، كما درس بها عبد القادر الفاسي الحنبلي عن أخيه سراج الدين"([125]).

وكان بالمدرسة سكن خاص بالطلبة، وممن سكن بها " نزيل مكة علي بن أحمد المارديني (٨٢٥هـ) سكن بها عدة سنوات، ونزل بها عبد الله بن عبد الواحد البصري (٨٩٣هـ)" ([126]).

- **المدرسة الكلبرجية**([127]): ولاية من ولايات الهند، تقع في إقليم الدكن، فقد كان سلطان كلبرجة من أجل ملوك الهند دينا، وعزما، وحزما، أرسل سنة ٨٣٠هـ أموالاً جزيلة إلى الحجاز ليُعْر له مدرسة بمكة والمدينة، فاشتريت له من السيد بركات داره التي عند الصفا، وشرع في عمارتها سنة٨٣١هـ، واكتملت في السنة التي تليها، وولي نظر أوقافها الشيخ علاء الدين الهندي.

وفوض للجلال المرشدي عبدالواحد بن إبراهيم سنة ٨٣٨هـ مشيختها والتدريس بها وترك له اختيار وتقرير أربعين طالباً من أي مذهب كان، وأن يُدرس فيها أي فن أراد من تفسير، وفقه، ونحو.. . وغير ذلك. وقد تلقى الشيخ محمد بن إبراهيم المرشدي (٧٧٠هـ – ٨٣٩هـ) مشيخة المدرسة الكلبرجية عن أخيه الشيخ عبدالواحد المرشدي.

وكان في هذه المدرسة أيضاً حلقة لإقراء القرآن الكريم، فقد ذكر السخاوي في ترجمة العلامة ناصر الدين المقدسي (٨٤٠هـ) أنه كان يقرئ فيها كل يوم عشرة من القراء نيابة عن الزين ابن عياش.

([123])الفاسي: العقد الثمين، (١ / ١١٧). وانظر ناجي معروف: المدارس الشرابية ببغداد وواسط ومكة، ص٣٥٧.
([124])ابن فهد: إتحاف الورى، (٣ / ٤٨٦).
([125])الفاسي: العقد الثمين، (٣ / ١٤١)، (٥ / ٤٧٠).
([126])الفاسي: العقد الثمين، (٦ / ١٣٨). وانظر السخاوي: الضوء اللامع، (٥ / ٣١).
([127])ابن فهد: إتحاف الورى، (٤ / ٦). وانظر السخاوي: الضوء اللامع، (١ / ٢١٠)، (٧ / ٢٣).

- **المدرسة الباسطية**[١٢٨]**:** تُنسب هذه المدرسة إلى الزين عبد الباسط بن خليل الدمشقي، ففي سنة ٨٣٤هـ اشترى الدار الداخل من المسجد الحرام من باب العجلة وأمر (استدارة)* ركن الدين عمر الشامي بأن يقيم بمكة ويُعمرها مدرسة، فابتدئ بعمارتها سنة ٨٣٥هـ واكتمل بناؤها سنة ٨٣٦هـ.

وقد وصف العلامة قطب الدين الحنفي هذه المدرسة فقال: " وهي مدرسة وخلاو للفقراء في غاية الإحكام والإتقان، وللمدرسة شبابيك مشرفة على المسجد الحرام، وسُبُل إلى جانب المدرسة (النجارين)** أئمة المقام الحنفي يسكنها الأعيان الواردون إلى الحج"[١٢٩].

وبقيت هذه المدرسة إلى القرن الرابع عشر الهجري قبل التوسعة السعودية المباركة للمسجد الحرام وكان الباب المؤدي إلى المسجد الحرام بقربها يُدعى بباب الباسطية.

- **رابعاً: الأوقاف على التعليم في المسجد الحرام**

عرف المسلمون نظام الوقف منذ بزوغ شمس الإسلام، وصار في تطور مستمر إلى أن جاء عصر المماليك الذي ازدهر نظام الأوقاف فيه وتنوّعت مصادرها، وكان للحرمين الشريفين عموماً، والمسجد الحرام على وجه الخصوص أوفر النصيب من الأوقاف في عصر المماليك.

وقد سبقت الإشارة إلى مكانة المسجد الحرام الدينية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، وكانت الأوقاف أحد أهم وسائل التنافس على زعامة المسجد الحرام. وكان سلاطين دولة المماليك، والأمراء، والأعيان، وأهل الخير المُوسرين من المسلمين في شتى بقاع العالم الإسلامي، قد وجدوا الأوقاف سبيلا لتحقيق رغبتهم في فعل الخيرات والتقرب إلى الله تعالى.

فكثرت الأوقاف في ذلك العصر وتنوعت ليشمل ريعُها مختلف مجالات الحياة الاجتماعية في المجتمع المكي، من مدارس لتعليم الصغار والكبار، والأيتام والمجاورين بالمسجد الحرام، والبيمارستانات لعلاج المرضى، وأصلحوا المسالك الموصلة إلى مناسك الحج، فعبدوا الطُرُق، وأوقفوا عليها الآبار، والسُبُل، والبرك، وبنوا الأربطة ليسكن فيها فقراء المسلمين وطلبة العلم والعلماء، فازدهرت بسبب الأوقاف حياة أهل مكة والمجاورين بها، والزائرين والمعتمرين.

ومن المهم أن نُشير في هذه الصفحات إلى أثر الأوقاف على الجهود التربوية في المسجد الحرام في عصر المماليك وذلك من خلال استعراض نماذج للوثائق الخاصة بالأوقاف في عصر المماليك، وكذلك ما ورد في المصادر التاريخية حول موضوع البحث، وكان للعناية بالأوقاف في المسجد الحرام أثره على الحركة التربوية في مكة المكرمة، وعزز روابط التكافل الاجتماعي بين المسلمين، وحققت الرعاية الاجتماعية للفقراء والمساكين من أهل مكة وقاصديها، وكان من الخدمات الجليلة التي أدتها الأوقاف سواء في الحياة الدينية، أو الاجتماعية، أو التعليمية في مكة المكرمة ما يأتي:

- **عمارة المسجد الحرام:** اهتم سلاطين المماليك بالحرم الشريف، وأوقفوا له الأوقاف التي تقوم على عمارته

([128])الفاسي: شفاء الغرام، (١ / ٣٣٨). وانظر ابن فهد: اتحاف الورى. ناجي معروف: المدارس الشرابية، ص٣٦٠.

*** الاستدار: لقب الذي يتولى قبض مال السلطان وتمتثل أوامره وفيه، لفظ فارسي يعني: المتولي للأخذ. انظر صبح الأعشى، (٥ / ٤٥٧).**

**** هكذا وردت ولعلها البخاريين نسبة إلى السيد الأجل البخاري الذي ولي مشيختها.**

([129])قطب الدين الحنفي: الاعلام بأعلام بيت الله الحرام في تاريخ مكة المشرفة، ص١٨٦.

وصيانته، وترميمه، وفرشه، وإنارته، ومن ذلك ما ورد في حُجْة السلطان حسن بن السلطان محمد بن قلاوون المؤرخة في ٢٦ من ربيع الثاني سنة ٧٦٢هـ، " بوقف سهم من نصفين، النصف الأول: ريعه في مصالح الحرم الشريف المكي من عمارة المسجد الحرام، وترميم، وفرش، ووقود، وغير ذلك مما يحتاج إليه من المصالح المذكورة، وإلى الفقراء المنقطعين من الحجاج بمكة المشرفة، الذين ليس لهم زاد ولا راحلة، كل ذلك على ما يراه الناظر ويؤدي إليه اجتهاده.. والثاني: يُصرف في المدينة الشريفة النبوية على ما شُرح أعلاه"([١٣٠]).

وفي سنة ٨٠٢هـ كلف السلطان الناصر فرج برقوق الجركسي أمير المحمل، الأمير سيف الدين بيسق الظاهري لعمارة الجانب الغربي، وبعض الجانب الشمالي من المسجد الحرام، وذلك لوصول النار إليه من رباط رامشت، وقد شرع في عمارته سنة ٨٠٣هـ، وفرغ منها في أواخر شعبان سنة ٨٠٤هـ"([١٣١]).

- **الوقف على المدارس:** اهتم سلاطين المماليك بالحركة العلمية نظراً لازدهار الحياة العلمية في الحجاز في المسجد الحرام في عصر تلك الفترة، وكان الهدف الأساس من تخصيص تلك الأوقاف، وإنفاق ريعها خدمةً للجهود التربوية والعلمية التي كان يقوم بها علماء المسجد الحرام في المجتمع المكي.

ولهذا كان أصحاب الوقف يحرصون على أن تكون ريع أوقافهم على المدارس الملاصقة للمسجد الحرام، وعلى علماء المسجد الحرام، وطلبة العلم فيه.

ومن هذه الأوقاف وقف الأمير شرف الدين إقبال الشرابي (ت ٦٥٣ه) الذي أوقف سنة ٦٤١ه داراً لطلبة العلم، يقع عند باب بني شيبة، وكان شرط وقفيته ينص على: " تخصيصه لطلبة المدرسة الشرابية، مكوناً من طابقين يسكن الطابق الأعلى منه الطلبة، والطابق الأسفل يسكنه المدرسون، والمسئولون عن تنظيف المدرسة.

وأوقف في موضع مر، ووادي نخلة أوقافاً، واشترط أن تنفق هذه الأوقاف على المدرسة، وجعل قسماً منه مكتبة تضُم كُتباً جعلها وقفاً على الدار"([١٣٢]).

وأكثر السلطان الأشرف برسباي من أوقافه على الحرمين الشريفين، حتى أنَّه وَقَفَ بلاداً بأكملها، وجاء في حجة وقف برسباي، المؤرخة في ١٦ جماد الآخرة سنة ٨٢٧ه أنَّ الأعيان الموقوفة هي: ".. . مجموعة أراضٍ ناحية الحمرا بالأعمال الجيزية، وأرض ناحية أبو رجوان بالجيزة.. .، يُصرف لقارئ بالحرم المكي ٢٤ ديناراً أشرفياً سنوياً"([١٣٣]).

وكان ريع أوقاف المدرسة البنجالية التي أسسها الملك المنصور غياث بن المظفر سنة ٨١٣ه " بلغت تكاليفها أكثر من اثني عشر ألف مثقال ذهباً، وقد أخذ المدرسون الأربعة القضاة من شريف مكة حسن بن عجلان ذهباً، نال كل واحد منهم خمسين ديناراً.

([130])زغلول: علي حسن، مدرسة السلطان حسن، كلية الآداب، جامعة القاهرة، رسالة ماجستير، ١٩٧٧م. وقد نُشِرت هذه الوثيقة في ملاحق الدراسة.

([131])ابن إياس، بدائع الزهور، (١ / ٥٨٨). وانظر الفاسي: شفاء الغرام، (٢ م ٥٩٢).

([132])الفاسي: شفاء الغرام، (١ / ٣٣١). وانظر مالكي: بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية، ص١٤٨.

([133])بدرشيني: أوقاف الحرمين الشريفين في العصر المملوكي، ص١٥٦.

أمَّا غلال الأوقاف فقد قُسِّمَت خمسة أقسام: قسم للمدرسين الأربعة بالسوية بينهم، وثلاثة أقسام للطلبة وهم ستون طالباً، والقسم الخامس يُقسم أثلاثاً: قسمان لسكان المدرسة، وهم عشرة رجال، وقسم لمصالحها من العمارة، والمياه، والزيت، وغير ذلك"([١٣٤]).

ومن أشهر الأوقاف على المدارس الوقف على مدرسة قايتباي، وهي من المدارس المشهورة بمكة المكرمة بناها السلطان قايتباي بمكة المكرمة سنة ٨٨٢ه، وانتهى بناؤها بعد عامين.

وكان بها أربعة مدرسين، وأربعون طالباً، وعين بها ثلاثة مؤذنين، ومسبلٌ يقوم لولاية أمر الماء، وعشرة أيتام وقرر لكافة العاملين ما يكفيهم من القمح، ويُرسل لهم من مصر سنوياً، وقرر الخبز، الدشيشة التي توزع عليهم يومياً ووقف عليهم عدة ضياع من مصر، تُرسل غلاتها إلى المدرسة كل عام، كما اشترى بمكة عدة دور، وجعل أجورها وقفاً على هذه المدرسة "([١٣٥]).

- **الوقف على أصحاب المذاهب:** من مظاهر الجهود التربوية للعلماء في عصر المماليك ظُهُور ما يُعرف بالمذاهب الإسلامية، إذ كان علماء المسجد الحرام قبل عصر المماليك على مذهب واحد هو المذهب الحنفي.

وكان لدولة المماليك توجهات دينية تتمثل في العناية بالمذهب الشافعي، علاوة على تأثير موسم الحج في تعدد المذاهب وتنازعها في مكة المكرمة، إضافةً إلى المجاورين للمسجد الحرام من العلماء وطلاب العلم من بلاد: العراق، والشام واليمن، ومصر، وبلاد المغرب العربي، ودول أفريقيا، ودول جنوب شرق آسيا، وبلاد فارس، والروم، والتتار، وغيرها.

فظهرت بدعة المقامات في المسجد الحرام، وهي مقام: الشافعية، الحنفية، والمالكية، والحنابلة، والزيدية "وفي سنة ٧٢٦هـ صدر مرسوم السلطان المملوكي إلى أمير مكة بإبطال مقام الزيدية، وإخراج الزيدية من المسجد الحرام، وألَّا يكون لهم إمام فيه، وأخرج إمام الزيدية إخراجاً عنيفاً"([١٣٦]).

نتيجة لهذا الحراك التربوي قام اتباع المذاهب الأربعة، وغيرهم من أصحاب الفرق، بوقف الأوقاف على مذاهبهم تأييداً للمذهب، ونشراً له في المجتمع المكي، ولعل من أشهر تلك الأوقاف على المذاهب:

- **رباط قايماز**([١٣٧])**:** أوقفه سنة ٥٧٨هـ الأمير قايماز بن عبدالله بن قليج أرسلان الشامي السلجوقي من أمراء سلاجقة بلاد الروم والأرمن، أوقفه على الأحناف، ليكون سكناً للمجاورين بالمسجد الحرام، والمقيمين، والمنقطعين في مكة.

- **رباط المدرسة الجهادية**([١٣٨])**:** وهو سكنٌ أوقفه السلطان المجاهد علي بن داود بمكة المكرمة في ذي القعدة سنة ٧٤٠هـ وأوقفه على الشافعية، وقد رتب واقفها فيها إماماً، ومؤذناً، ومعلماً، وأيتاماً، وطلبة.

وجاء في وثيقة بدار الوثائق العلمية تاريخها ١٠ ذي القعدة ٨١٥هـ، وقف جمال الدين أبو المحاسن يوسف الناصري ونصها: "..، ويصرف من ريع الوقف المذكور لرجل من أهل الخير والدين، عالم بمذهب الإمام الشافعيﷺ يتصدر بالمسجد الحرام بمكة المكرمة شرفها الله وعظمها،

([134])**ابن فهد: غاية المرام، (٢ / ٥٥٨). إتحاف الورى، (٣ / ٤٨٦). وانظر الفاسي: شفاء الغرام، (١ / ٥٢٦).**
([135])**السخاوي: الضوء اللامع، (٦ / ٢٠٧)، وانظر ابن فهد: إتحاف الورى، (٤ / ٦١٢). غاية المرام، (٣ / ٢٣٤).**
([136])**ابن كثير: البداية والنهاية، (٧ / ٥١٧). وانظر ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، (١ / ١٨٤).**
([137])**الفاسي: شفاء الغرام، (١ / ٣٣٣).**
([138])**الخزرجي: القعود اللؤلؤية، (٢ / ١٢٦). وانظر ابن فهد: غاية المرام، (٢ / ١٧٧).**

لاشتغال من يأتي إليه، ويشتغل عليه بمذهب الإمام الشافعيﷺ في كل يوم من الأيام الجاري العادة في الاشتغال بمكة المشرفة فيما بين طلوع الشمس إلى آذان الظهر"([١٣٩]).

- **أوقاف المدرسة الغياثية (البنجالية):** أمر الملك المنصور سنة ٨١٣هـ بشراء أوقاف لهذه المدرسة " يُصرف ريعها على أربعة مدرسين، اختص كل منهم بتدريس مذهب من المذاهب الأربعة المشهورة، وستين طالباً من المتفقهين: عشرين من الشافعية، وعشرين من الحنفية، وعشرة مالكية، وعشرة حنابلة"([١٤٠]).

- **وقف المدرسة الزمامية**([١٤١])**:** فقد قرر الطواشي خشقدام الزمام سنة ٨٣٦هـ على هذه المدرسة شيخاً صوفياً من أهل الدين، وصوفية عشرة غرباء، وجعل بها سكناً، وصهريجاً لجمع الماء من سطح المسجد الحرام وقفاً على الصوفية المقيمين به، وأوقف عليها الريع الذي بالمسعى، المعروف بريع التوريزي.

- **الوقف على الفقراء والمساكين**([١٤٢])**:** وهذه الأوقاف كان لها – بعد الله – أكبر الأثر في تفرُّغ طلاب العلم للتعلم والتعليم، ومعلوم أنَّ غالبية من اشتغل بالعلم في المسجد الحرام كان من المجاورين، الذين تركوا أوطانهم وأموالهم حباً في طلب العلم، وابتغاء الأجر من الله.

ولهذا ومن أوقاف السلاطين، والأمراء، والأثرياء العديد من الأوقاف يُصرف ريعها على الأيتام، والمجاورين والفقراء، والمساكين، والمحتاجين، ووفروا لهم المسكن، والمأكل والمشرب، وكل ما يحتاجه طالب العلم من كتب وأدوات للكتابة وغيرها، مما كان له أعظم الأثر في نشر الجهود التربوية لعلماء المسجد الحرام، ومن ذلك:

- **أراضي سرياقوس بالقليوبية:** أوقفها السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٤هـ، يُصْرف ريع عشرين سهم على المنقطعين بالحرمين الشريفين، برسم الزاد، والراحلة التي تقلهم.

- **بيت الأرجي العامر المحروسة:** بالقرب من الجامع البيمارستان النوري، ويُعرف بطاحون السوق، نصف قرية كرك نوح، يُصرف ريع نصف سهم في مصالح الحرم المكي من عمارة وترميم، وفرش ووقود، وغيره، وإلى الفقراء المجاورين، والحجاج بالحرم المكي.

- **مجموعة قطع أراضي بمصر:** قطعة أرض بأرض بركة الفيوم، أرض بناحية طموية، أرض المقنن، أرض معروفة بالجزيرة بالجيزة، ثلاثة أبنية واسطبلين بظاهر القاهرة، مجدرة البقر بالقرب من مدرسة السلطان حسن، قطعة أرض ناحية دموه جيزة، قرية دجانية بالقدس، يُصْرف بالحرم المكي ١٠٠درهم نقرة شهرياً لتعليم عشرة أيتام، ٥٠ نقرة سنوياً لكسوتهم، ٣٠ درهم نقرة شهرياً لمؤدبهم، ٢٠٠ درهم نقرة سنوياً لمدرس شافعي، ١٠٠ درهم سنوياً أربعة طلبة شافعية، ٢٠٠ درهم نقرة سنوياً لمدرس حنفي، ١٠٠ درهم سنوياً أربعة طلبة حنفية، ٢٠٠ درهم نقرة سنوياً لقارئ قرآن، ٢٠٠ درهم نقرة سنوياً لمتصدر الفرائض، ٥٠٠ درهم نقرة سنوياً برسم تسبيل ماء، وذلك سنة ٨٠٨هـ وكان المتصرف بأموال الوقف شاهين بن عبدالله الحسني رأس نوبة.

([139])ابن فهد: إتحاف الورى، (٤ / ٦٤). وانظر نص الوثيقة بدرشيني: أوقاف الحرمين الشريفين في العصر المملوكي، ص٤٦٠.

([140])الفاسي: شفاء الغرام، (١ / ٥٢٥). وانظر ابن فهد: إتحاف الورى، (٣ / ٤٨٦).

([141])بدرشيني: أوقاف الحرمين الشريفين في العصر المملوكي، ص٤٦٤. وانظر السخاوي: الضوء اللامع، (١٠ / ٢٩٤).

([142])بدرشيني: أوقاف الحرمين الشريفين في العصر المملوكي، ص٤٢٦. وانظر العبيكان: الحياة العلمية والاجتماعية في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة، ص٢١٨.

- **الوقف على المرافق العامة والطرق:** لم تقتصر الأوقاف على عمارة المسجد الحرام، والحياة العلمية بمكة المكرمة، بل توسعت لتشمل تيسير الماء لأهل مكة المكرمة والوافدين عليها، وتمثل ذلك في حفر الآبار، وإجراء العيون وإقامة السُبُل، وإنشاء البرك، والمطاهر، وبناء المستشفيات (البيمارستانات)، ومن ذلك:

- **بئر طوى:** خصصت لسقاية الحجاج وسكان مكة، كان يقصدها الحجاج ويتوضأون بمائها، وهناك آبار كثيرة بمكة المكرمة مثل بئر: رباط السدة، رباط الشرابي، البستان عند باب المعلاة، بئر النجار، وميمون الحضرمي.. .

- **العيون:** وأشهرها عين بازان، وعين الملك الناصر محمد بن قلاوون، وعين الأمير نائب السلطنة بمصر.. .

- **السُبُل:** وهي عبارة عن خزانات صغيرة تُبْنى فوق الأرض، وتُملأ بالمياه لسقيا الناس، ومن أشهرها بمكة سبيل الزنجيلي، وسبيل بنت القاضي، وسبيل بن ظهيرة، سبيل أم سليمان الزاهدة.

- **البرك والمطاهر:** بركتان عند باب المعلاة، وبرك في منى - وعرفة. **وأمَّا المطاهر** فمنها: مطهرة الملك الناصر محمد بن قلاوون، ومطهرة الملك الأشرف شعبان، ومطهرة باب المسعى بناها الملك الناصر سنة ٧٢٨هـ.

يتضح مما سبق الدور البارز الذي أدته الأوقاف في تمويل التعليم في عصر المماليك، مما يوحي بإمكانية الاستفادة منها في العصر الحاضر بتحفيز الموسرين للوقف على التعليم من أجل الإسهام في تمويله وتطويره خاصة في ظل الأزمات الاقتصادية التي تعاني منها بعض البلدان العربية.

خامساً: العناية بتعليم المرأة

لم يكن التعليم أمراً مقتصراً على الرجال فحسب، بل كانت النساء في طلب العلم ومجاورة المسجد الحرام شقائق الرجال، فحققت المرأة في عصر المماليك مكانة علمية متميزة، فأخذن العلم وبرعن فيه، بل وتميّزن عن كثير من الرجال، وأصبح منهن عالمات جليلات، وحُزن على الأسانيد العالية المتصلة، في شتى المعارف والعلوم، ودَرَّسْنَ بالمسجد الحرام.

هذا التميز والسبق العلمي جعل كثيراً من طلاب العلم من الرجال يتنافسون، ويتسابقون على أخذ الإجازات* العلمية منهن في شتى علوم الشريعة، مثل: علم الحديث، والفقه، والتفسير، واللغة، والتاريخ والسير، فبرع من هؤلاء - ممن تعلموا عن عالمات مكة المكرمة – جهابذة أعلام يُشار لهم بالبنان.

وقد خص بعض المؤرخين في مؤلفات عن دور عالمات مكة، ومكانتهن العلمية والتربوية في عصر المماليك وترجم لهن، مثل: عبد القادر الطبري (ت ١٠٣٣هـ)، الذي ألف كتاب: " إنباء البرية بالأبناء الطبرية " قدم فيه ترجمة لست وتسعين من عالمات أسرة الطبري، بالإضافة إلى ما شملت عليه كُتب الطبقات والتراجم والتاريخ من تراجم دونت عالمات مكة المكرمة في الحياة العلمية والتربوية والاجتماعية في عصر المماليك، كَمَعْلَم للجهود التربوية في المسجد الحرام في

---

* **الإجازة: مصطلح في الأصل بدأ من علماء الحديث في نقل نص الحديث بالرواية والإسناد، حفاظاً على صحة وسلامة النص والوثوق به، ثم انتقلت الإجازة إلى بعض العلوم الأخرى كعلم الفقه، والقراءات، وأصبحت أساساً للتواصل المعرفي بين العلماء، وتنوعت بين إجازات عامة وخاصة، وبين أن تكون مطلقة أو مقيدة، وقد اشتهر علماء المسجد الحرام من الرجال والنساء بعلو السند. أنظر: موسوعة مكة المكرمة والمدينة المنورة، (٢ / ٥).**

عصر المماليك. ومن هؤلاء العلماء مَن} أفرد باباً في مؤلفاته لبعض شيوخهم من النساء، ومن ذلك:

١- **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين:** لتقي الدين محمد الفاسي (ت ٨٣٢هـ) أفرد فيه باباً للنساء في كتابه ورتب أسماءهن على حروف المعجم تحت الاسم الأول، وبلغ عدد العالمات المكيات اللاتي أجزن للعلماء ثلاثاً وعشرين عالمة مكية يُشار إليهن، من أولئك العالمات المكيات الجليلات:

- فاطمة بنت أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن العمري الحرازي (٧١٠هـ – ٧٨٣هـ) محدّثة الحرمين ومُسندة مكة، تولت التدريس في المسجد الحرام، وكذلك بالمدينة المنورة حين جاورت المقام النبوي الشريف، كان أبوها رئيس الفتوى بمكة (ت ٧٥٥هـ)، وأمها سيدة بنت محُدّث مكة رضي الدين الطبري.

أخذت فاطمة الحرازي (صحيح البخاري) عن شيوخها الكبار في مكة، وهي التي أجازت للزين العراقي، وسمع عليها ونال منها الإجازة كثيرون منهم: عبد الله بن محمد الحرازي (ت ٨١٦هـ)، ومحمد بن علي بن أحمد النويري المكي (ت ٨٣٢هـ)، وكمالية بنت محمد بن أحمد الحرازي (ت ٨٤٩هـ)، ومحمد بن أحمد بن محمد النويري (ت ٨٢٠هـ) وأبو زرعة أحمد بن عبد الرحيم بن الحسن العراقي (ت ٨٢٦هـ)، ومحمد بن أحمد بن ظهيرة المكي (ت ٨٢٩هـ).

قال عنها تلميذها محمد بن أحمد بن علي الفاسي (ت ٨٣٢هـ): " حدَّثت وسمع منها الأعيان من شيوخنا وغيرهم، وسمعتُ عليها الثقفيات بالمدينة النبوية لما كانت مجاورة فيها، وبها توفيت"([١٤٣]).

- فاطمة بنت القطب محمد القسطلاني([١٤٤]) (ت٧٢١هـ): سمعت وحدثت، سمع عليها أحمد بن محمد الطبري جزءاً من فوائد أبي بكر بن أبي داود السجستاني وغيره، وحدثت بسداسيات الرازي، سمعها منها سنة ٧٠٦هـ الجمال محمد بن أحمد بن عبدالمعطي، وخليل المالكي، وأحمد بن سالم بن ياقوت المؤذن، وأختها عائشة (ت ٧١٦هـ) حدثت بسداسيات الرازي، وأمالي الجوهري.

- صفية بنت إبراهيم بن أحمد بن يحيى الزبيدي المكية([١٤٥])(ت ٧٤٣هـ): تُكَنَّى بأم الفضل سمع منها سليمان بن خليل العسقلاني، وأجازت للقطب القسطلاني، ولابنه أمين الدين، وكتبت فيه بخطِّها. وصفت في شاهد قبرها بالمعلاة بأنها: الست الشيخة العالمة الزاهدة الفاضلة الورعة السعيدة، شيخة الصوفيات، خادمة الفقراء بالحرمين الشريفين.

- زينب بنت أحمد بن ميمون بن قاسم التونسي المغربي([١٤٦])(ت٧٨٠هـ) الشهيرة ببنت المغرب، حدَّثت بمكة وسمع منها الجمال أبو حامد بن ظهيرة، وسمع منها عدد من العلماء، وأجازت سنة ٧٥٨ه لعدد من العلماء منهم أبو الفضل بن ظهيرة، وجار الله بن صالح، وعبيد الله بن صالح، والقاضي مجد الدين الشيرازي.

كما أجازت سنة ٧٥٩هـ لأحمد بن محمود، وعبد الله الحرازي، ومحمد بن حسين بن المؤذن، ومحمد بن يعقوب بن زبرق. وأجازت سنة ٧٦٢هـ لأم الحسن بنت محمد بن فهد، ومحمد بن علي الزمزمي، وأبي السعود محمد بن المحب الطبري

([143])الفاسي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، (٨ / ٢٩٦).
([144])الفاسي: العقد الثمين، (٨ / ٢٧٠)، (٨ / ٢٨٦)، وانظر السخاوي: الضوء اللامع، (١٢ / ٥٧).
([145])موسوعة مكة والمدينة المنورة، (٢ / ١٣).
([146])معتوق: علم الحديث في مكة المكرمة خلال العصر المملوكي، ص١٤٨.

وفي سنة ٧٦٥هـ أجازت للقاضي شهاب الدين أحمد بن علي الفاسي، وظهيرة بن حسين، وعبد الرحمن بن صالح، وعبد الله الحرازي، ومحمد بن علي النويري، وأبي البركات بن ظهيرة.

- فاطمة بنت محمد بن عبد المنعم البهنسي([147])(ت ٧٨٦هـ): حدثت بكتاب (اليقين) لابن أبي الدنيا وسمعه عليها ابنها محمد بن عبدالملك المرجاني، وابن سكر. وأجازت لأحمد بن علي الفاسي، وظهيرة بن حسين وعبد الرحمن بن صالح، وعبد الله الحرازي، ومحمد بن علي النويري، وأبي البركات بن ظهيرة، وأبي البركات الطبري.

ومن عالمات مكة من رحلت في طلب العلم، وتنقلت بين مكة، ومصر، والعراق، والشام، واليمن حتى حازت العلم على كبار علماء زمانها، فأصبحت بعد هذا العناء في السفر والترحال من بلدٍ إلى بلدٍ من أكابر علماء عصرها وملأت شهرتها الدنيا، حتى حرص كثير من العلماء على أخذ الإجازة منها، ومن أولئك العالمات المكيات:

- ست قريش فاطمة بنت محمد بن أبي الخير محمد بن محمد بن فهد الهاشمي([148])(ت٨٢٤هـ) سمعت من أكابر علماء عصرها وأجازوها، حيث أخذت عنهم في مكة، والمدينة، وبيت المقدس، والخليل، ومصر ودمشق وحلب، وحماة، وبعلبك، وطرابلس، وغزة، والرملة، والإسكندية، وزبيد، وتعز. ملأت شهرتها الآفاق بعلمها وصلاحها. وأجازت عدداً من العلماء البارزين.

٢- **معجم الشيوخ**([149])**:** نجم عمر بن محمد بن محمد بن أبي الخير بن فهد القرشي المكي (ت ٨٨٥هـ) ضم مُجْمل شيوخه الذين أخذ منهم الإجازة في مصر، والشام، والحجاز، وغيرها وترجم لهم على حروف المعجم مشيراً إلى المدن التي كان فيها الشيوخ، وقد ضمت قائمة شيوخه النساء، سبعاً وستين عالمة، كان منهم سبع وثلاثون عالمة مكية ومدنية، ومنهن بعض المجاورات، ومن شيوخه العالمات المكيات اللواتي أجزنه في العلم، وفي هذا بيان للجهود التربوية لعلماء المسجد الحرام في عصر المماليك، إذ أنَّ غالب هؤلاء العالمات المكيات كُنَّ من الأسر العلمية التي خدمت العلم في تلك الفترة، ومن هؤلاء العالمات المكيات شيوخ ابن فهد وهنَّ:

- أم الحسن بنت عبد الملك البكري التونسي المكي: الشهير والدها بابن المرجاني (ت ٨٤٢هـ).
- أم هانئ بنت أبي القاسم بن أبي العباس أحمد بن محمد بن عبد المعطي الأنصاري المكي (ت ٨٧٩هـ)
- أم هانئ بنت عبد الواحد بن إبراهيم بن أحمد المرشدي المكي (ت: ٨٠٦هـ).
- أم الوفاء بنت علي بن أحمد بن عبد العزيز بن القاسم النويري (ت: ٨٥٥هـ).
- بدور بنت عبد الله المريسية، عتيقة عبد الرحمن بن أبي الخير محمد بن فهد المكي (ت ٨٥٠هـ).
- حُسْن بنت محمد الحافي بن حسن السعدي المكي (ت ٨٤٢هـ).
- خديجة (وتدعى سعيدة) بنت عبد الرحمن بن علي بن أحمد النويري (ت ٧٩٧هـ).

([147])**موسوعة مكة والمدينة المنورة، (٢ / ١٥).**
([148])**الفاسي: العقد الثمين، (/) ،وانظر: موسوعة مكة والمدينة المنورة، (٢ / ١٥).**
([149])**ابن فهد: معجم الشيوخ.**

- خديجة (وتدعى سعادة) بنت عبد الرحمن بن أبي الخير محمد بن محمد بن فهد المكي (ت ٧٨٧هـ).
- خديجة بنت أبي عبد الله محمد بن حسن بن الزين بن القطب القسطلاني المكي (ت ٨٤٦هـ).
- زينب بنت إبراهيم بن أحمد بن أبي بكر بن عبد الوهاب المرشدي المكي (ت ٨٤١هـ).
- زينب بنت أحمد بن محمد بن موسى الشوبكي المكي (ت ٨٨٦هـ).
- زينب بنت عبد الله بن أسعد اليافعي المكي (ت ٨٤٦هـ).
- زينب بنت الراضي محمد بن المحب الطبري (ت ٨٦٢هـ).
- ست الأهل بنت عبد الكريم بن أحمد بن عطية بن ظهيرة القرشي المخزومي (ت ٨٤٩هـ).
- ستيت بنت عبد الله بن علي بن عبد السلام بن عبد الله بن علي بن محمد الكازروني المكي (ت ٨٥٩هـ).
- عائشة بنت عبد الوهاب بن عبد الله بن أسعد اليافعي المكي (ت ٨٦٦هـ).
- كمالية بنت علي بن أحمد بن عبد العزيز النويري (ت ٨٦٧هـ).
- كمالية بنت علي بن أحمد بن عبد الكريم بن أحمد بن عطية بن ظهيرة القرشي المخزومي (ت ٨٥٧هـ).
- منصورة بنت عبد الله بن تقي الدين محمد بن أحمد بن قاسم الحرازي المكي (ت ٨٥٧هـ).
- هُدَيَّة بنت عبد الله بن أحمد بن حسن بن الزبن القسطلاني (ت ٨٦٠هـ).

٣- **ذيل معجم الشيوخ**([150]): نجم بن فهد ترجم لخمس عالمات مكيات أجزن له، هنَّ:

- زينب بنت التقي محمد بن محمد بن أبي الخير محمد بن فهد الهاشمي المكي (٨٨٥هـ).
- رقية بنت عبد القوي بن محمد بن عبد القوي المكي (٨٧٤هـ)
- ست قريش بنت تقي الدين أبي الفضل محمد بن محمد أبي الخير محمد بن محمد بن فهد (ت ٨٣٧هـ)
- كمالية بنت أحمد بن محمد بن ناصر بن علي الكناني المكي الحنفي (كانت حية سنة ٨٦٥هـ).
- هبة الله بنت عبد الله الحبشية (ت ٨٨١هـ).

- **درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة**([151]): تقي الدين المقريزي (ت ٨٤٥هـ) ترجم لعدد قليل من النساء كانت منهن عالمتان مكيتان هما:

- ست الكل بنت الزين أحمد بن محمد القسطلاني (ت ٨٠٣هـ) خرَّج لها المحدث صلاح الدين القفهي جزءاً مما حدثت به في مكة المكرمة.
- فاطمة بنت أحمد بن قاسم الحرازي (ت ٧٣٨هـ) حدثت بمكة، قال عنها ابن سكر: و لي منهالا إجازة([152]).

([150])**ابن فهد: ذيل معجم الشيوخ.**
([151])**تقي الدين المقريزي: درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة.**

٤- **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**[١٥٣]**:** ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، كان مقلاً في ذكر تراجم النساء وترجم لخمس عالمات مكيات هن:

- زينب بنت أحمد بن ميمون بن قاسم، المعروفة ببنت المغربي (ت ٧٨٠هـ)، وقال: بأنها حدثت بمكة وحدث عنها أبو حامد بن ظهيرة.
- عائشة بنت عبد الله بن أبي جعفر أحمد بن عبد الله الطبري (كانت حية سنة ٧٦١هـ)، حدثت، وحدث عنها أبو حامد بن ظهيرة.
- فاطمة بنت إبراهيم بن محمود بن جوهر البعلبكي البطائحي (ت ٧١١هـ)، حدثت وأخذ عنها السبكي.
- فاطمة بنت أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن الحرازي (ت ٧٨٣هـ)، حدثت، وروى عنها ابن شكر، وروى عنها بالإجازة الشيخ عبد الرحمن بن عمر القبابي المقدسي، وعبد الرحيم بن الطربلسي.
- أمة الرحمن فاطمة بنت أحمد بن علي بن حجر القسطلاني (ت ٧٢١هـ)، حدثت، وسمع منها البرزالي، والعز ابن جماعة ".

٥- **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**[١٥٤]**:** شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السيوطي (ت ٨٣١هـ) خصص جزءاً من كتابه هذا للترجمة للنساء، وجعله تحت عنوان (كتاب معجم النساء) ترجم فيه لألف وخمس وسبعين من النساء، شمل أعلامهن في عدد من الأقطار.

كانت الحجازيات من مكة المكرمة والمدينة المنورة يُمثلن جزءاً وفيراً من (المعجم)، واقتصرت على اللواتي رُوي عنهن، أو سمع منهن، أو قُرئ عليهن، أو أجزن للعلماء والعالمات، فقد اشتمل كتاب معجم النساء من الضوء اللامع على سبع وأربعين عالمة مكية ومدنية معظمهن من اللواتي أجزن للسخاوي نفسه، وعدهُن من شيخاته، ومنهن:

- أُنْس بنت عبد الكريم بن أحمد بن عبد العزيز الكريمي اللخمي التستراوي (ت ٨٦٧هـ) التي جاورت بمكة المكرمة وحدثت. يقول عنها السخاوي: " جاورت وحدثت بحضور شيخنا وبعده قرأ عليها الفضلاء، وكانت تحتفل بذلك وتكرم الجماعة غالباً، وخَرّجْتُ لها أربعين حديثاً عن أربعين شيخاً قرأتها عليها بحضوره (زوجها) أيضاً وحصلت عنها أشياء ".
- ست العراق بنت الشهاب أحمد بن ناصر الدين محمد بن التقي محمد بن حسين بن مسلم البالسي المصري (ت ٨٦٧هـ). حدثت بمكة، وقرأ عليها السخاوي الأربعين لأبي هريرة، وأجازته.
- ست الكل بنت أحند بن محمد بن الزين محمد القسطلاني، وتُعْرف ببنت رحمة (ت ٨٠٣هـ) خرَّج لها الحافظ الأقفهسي جزءًا. حدثت، وسمع منها التقي الفاسي، وعدَّها من شيخاته.
- عائشة بنت أبي بكر الحسين بن عمر بن محمد بن يونس بن الزين القرشي العثماني المراغي سمعت سنة ٧٦٧هـ من العز بن جماعة. حدثت، وسمع منها الفضلاء، وأخذ عنها التقي الفاسي وآخرون.

([152])المقريزي: درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، (٢ / ٩٤).
([153])ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، (٢ / ٧٠)، (٢ / ١٤٤).
([154])السيوطي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع.

- غصون بنت النور أبي الحسن علي بن أحمد بن عبد العزيز، أم الوفا العقيلية النويرية (ت ٨٥٥هـ). قال السخاوي: " وأجازت لنا وكانت صينة أصيلة ".
- فاطمة بنت البدر محمد بن الجمال يوسف بن عبد الله بن عمر الكردي الكوراني (ت ٨٧٣هـ) أجاز لها أكابر العلماء، وأجازت للسخاوي.

٦- **المختصر من كتاب نشر النور والزهر**([155]): عبد الله أبي الخير مراد (ت ١٣٤٣هـ) ترجم لإحدى وثلاثين عالمة مكية، كان منهن عشر عالمات أجزن للعديد من العلماء، منهن:

- رئيسة بنت أبي جعفر أحمد بن أبي بكر الطبري (كانت حية سنة ٦٤٥هـ) حدثت في زمانها.
- زينب بنت المحب أحمد بن أبي بكر الطبري، سمعت من شعيب الزعفراني سنة ٦٤٣هـ، أجازت الشهاب الحنفي، وروى عنها السجستاني.
- فاطمة بنت المحب أحمد بن عبد الله بن محمد أبي بكر الطبري، قال عنها الفاسي في (العقد الثمين): إنها أجازت لجماعة من شيوخ شيوخنا في استدعاء مؤرخ بالحرم سنة ٧٣٧هـ.

يتضح مما سبق أن المرأة كان له دوراً في بارزاً في العملية التعليمية تعليماً وتعلماً، وأنه لا يستطيع محايد أن ينكر هذا الدور، مما يتطلب النظر إلى تعليم النساء وإتاحته لهن بما يتناسب مع طبيعتهن وإمكاناتهن، وأن ينظر النساء إلى أسلافهن ويقتدين بهن علماً وعملاً بحيث يشاركن الرجال في نهضة المجتمع وتقدمه شريطة الالتزام بالضوابط الشرعية وبما يتناسب مع طبيعتهن من العلم والعمل.

([155])**عبد الله مراد: المختصر من كتاب نشر النور والزهر.**

المبحث الثالث: وسائط التعليم في عصر المماليك.

تتعدد وسائط التعليم في عهد المماليك، وقد كان للعلماء في تلك الفترة جهود تربوية من خلال النشاط العلمي الذي كان في مكة المكرمة، من خلال حلقات التعليم المنتشرة في المسجد الحرام، أو من خلال التعليم في الأربطة وبيوت العلماء، أو المكتبات وخزائن الكتب، كما كان للوراقين جهود تربوية، حيث يُلْقِي العلماء دروسهم في مختلف العلوم الشرعية، واللغوية، ومختلف العلوم الأخرى، والتي يُقْبِلُ عليها جمعٌ كبير من طلاب العلم، ولعل من أهم وسائط التعليم في عصر المماليك ما يأتي:

أولاً: حلقات التعليم في المسجد الحرام في عصر المماليك

يُعْد المسجد الحرام من أكبر وأهم وسائط التعليم في عصر المماليك، حيث يجتمع طلاب العلم على اختلاف ألوانهم ومذاهبهم الفكرية والعقدية، لدراسة مختلف العلوم على أيْدي علماء مشهودٌ لهم بالعلم والإتقان.

وكان الدارسون من طلاب العلم في المسجد الحرام يتحلقُون حول العلماء، وكان كل دارس - في العادة -يختار مكاناً محددا، وللدارس أيضاً حرية اختيار العالم الذي يُريد الدراسة عليه، كما أنه كذلك حرية اختيار المنهج الذي يُريد دراسته. وكذلك حرية اختيار أكثر من درس، والانتقال من درس إلى آخر، أو من عالم إلى عالم آخر، كما أن حضور الدرس في المسجد الحرام لم يكن إلزاماً. أو مقيداً بوقت معين.

ولهذا كانت حلقات التدريس بالمسجد الحرام تُيسر للدارس حرية الحضور حسب أعمالهم، ومصالحهم كما لم يكن هناك تحديد عدد مُعين من الدارسين في تلك الحلقات العلمية.

وكانت تلك الحلقات العلمية لها أماكن محددة في المسجد الحرام، حيث يجلس العلماء بعد صلاة الفجر مباشرة في صحن الحرم الشريف، وهذه الحال لا تستمر أكثر من ساعتين، حيث تبدأ حرارة الشمس بالارتفاع، فينتقل الدرس إلى أروقة الحرم الشريف، أو إلى مقام من المقامات الأربعة.

ويجلس العالم أثناء الدرس ووجهه متجه إلى الكعبة الشريفة، ومتطهر للدرس كأنه في حالة صلاة، وفي العادة لا يكون هناك صعوبة في اختيار مكان الدرس، حيث يجلس العالم في أي مكان من المسجد الحرام حسب رغبته. باستثناء المقامات الأربعة التي عادة ما تكون مخصصة لعلماء معينين من السلطان.

وتُشير المصادر التاريخية إلى أن الدروس التي كانت تُلقى في المسجد الحرام، كان لها عدة صور: "فهي إما دروس تطوعية، يقدمها بعض العلماء احتساباً للثواب والأجر من الله – عز وجل – لا يأخذون عليها أي مقابل مالي وللعالم هنا حرية اختيار موضوع الدرس. أما الصورة الثانية: فيقوم أحد كبار رجال الدولة بتدريس درس في فقه مذهب من المذاهب، أو درس في الحديث.

والصورة الثالثة من صور التدريس بالمسجد الحرام: يُعين السلطان من علماء المسجد الحرام من يقوم بتدريس درس في فن واحد أو أكثر من فنون العلم، مثل: دروس السلطان الأشرف شعبان في فقه المذاهب الأربعة، ودرس الحديث الشريف"([١٥٦]).

وكان السلاطين، والأمراء حريصين على استقطاب أشهر علماء المسجد الحرام، وكانت تُخصص لهم رواتب مجزية مقابل تدريسهم في المسجد الحرام، " وعادة ما يكون هذا العالم من

([156])الفاسي: العقد الثمين. (١ / ٣٦٧). (١ / ٣٠١) وانظر ابن فهد: إتحاف الورى، ٢٩٦)، (٣ / ٣٦٨) " بتصرف ".

قضاة مكة المكرمة المشهود لهم بالإتقان والصلاح، أو أحد أئمة المقامات الأربعة، أو غيرهم من كبار العلماء، ويجزلون لهم العطاء بحيث وصل عطاء أحد العلماء على درس مائتي مثقال ذهب في السنة"([١٥٧]).

ومن ملامح الجهود التربوية لحلقات التعليم في المسجد الحرام في عصر المماليك أن دروس العلماء في الحرم الشريف لم تكن مقتصرة على تدريس علوم الدين، واللغة، والحديث، والتفسير، وغيرها من العلوم، بل كان هناك دروساً في الوعظ والتصوف، وكانت المناظرات تتم فيها بين العلماء من المجاورين والوافدين على مكة في مواسم الحج فقد كانت تُعْقد حلقات العلم في المسجد الحرام في جميع العلوم النقلية والعقلية، في مختلف المعارف.

ومن الحلقات والدروس التي قررها بعض السلاطين والأمراء والتجار، الدرس الذي قرره يلبغا الخاصكي أحد سلاطين الناصر محمد بن قلاوون، فلقد قرر درساً في الفقه الحنفي سنة ٧٦٣هـ، ودرسه الشيخ محمد الصاغاني"([١٥٨]).

"وقرر سلطان بلاد فارس شاه شجاع بن محمد بن ملك شيراز درساً في الحديث، وممن تولى تدريسه الشيخ الغوي المتوفى سنة ٧٨١هـ، وفي سنة ٨٠٦هـ قرر بشير الجمدار أحد أمراء المماليك بمصر، ودرسه القاضي جمال الدين بن ظهيرة، والقاضي أحمد العقيلي الملقب بمحب الدين النويري"([١٥٩]).

من أشهر العلماء الذين درسوا في المسجد الحرام، وكان لهم جهود تربوية وعلمية في عصر المماليك([١٦٠]):

- الخضر بن عبد الواحد بن الخضر، القاضي بمكة المكرمة (ت ٦٣١هـ) كان يدرِّس بالحرم الشريف ويُفتي".
- محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن الحسن العسقلاني المكي الشافعي (٦١٤هـ - ٦٨٦هـ)، ولد بمصر ونشأ بمكة درس بمدرسة دار زبيدة بالحرم الشريف، وأفتى في سنة ٦٣٣هـ، له مؤلفات نافعة، عُين لقضاء مكة سنة ٦٤٥هـ.
- محمد بن أبي بكر بن عبد الله العسقلاني المكي شيخ الحرم ومفتيه المتوفى بمكة سنة ٦٩٥هـ.
- إبراهيم بن أحمد بن محمد الأربيلي (ت ٧٧١هـ) نزيل مكة، كان معيداً بالمسجد الحرام.
- أحمد بن محمد العقيلي المشهور بمحب الدين النويري المكي الشامي (ت ٧٩٩هـ)، كان يدرس في المسجد الحرام.
- حسين بن أحمد بن ناصر الهندي الأصل، المكي المولد والدار، الحنفي المذهب (٨٢٤هـ)، كان يعمل مواعيد بالمسجد الحرام بناحية الصفا، ويدرس فيه، مقابل مدرسة عز الدين عثمان الزنجيلي بالجانب الغربي من المسجد الحرام.

([157])الفاسي: العقد الثمين. (٢ / ٥٦)، (٢ / ٣٥٠)، (٦ / ١٣٠).
([158])ابن فهد: إتحاف الورى، (٣ / ٢٩٦).
([159])يوسف: الدليل الشافي على المنهل الصافي. (١ / ٣٤).
([160])الفاسي: العقد الثمين. (٤ / ٣١٦) (١ / ٣٢١) (٢ / ٥٩) (٣ / ٢٠٠) (٣ / ١٢٣)، وانظر السخاوي: الضوء اللامع، (٣ / ١٣٧).

- أحمد بن موسى بن علي المكي المعروف بابن الوكيل الشافعي (ت ٧٩١هـ) بمكة، درس النحو بمكة على يد أبي العباس بن عبد المعطي، والفرائض على يد القاضي شهاب الدين بن ظهيرة، له مؤلفات، وكانت له حلقة بالمسجد الحرام يشتغل فيها.
- محمد بن أحمد بن إسماعيل الدمشقي (ت ٨٠٩هـ) جاور بمكة عدة سنين، وانتصب للإقراء بالمسجد الحرام.
- أحمد بن محمد بن عبد الله التونسي المعروف بالمرجاني، كان يعمل معيداً بالحرم، وأقام بمكة عدة سنين.

كما أن التدريس في الحرم المكي الشريف لم يكن قاصراً على العلماء من الرجال فحسب، بل كان هناك من عالمات مكة من قام بالتدريس في المسجد الحرام، وكان لها حلقة تدرس علم الحديث.

ومن أشهر أولئك العالمات محدثة الحرمين الشريفين " فاطمة بنت أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن العمري الحرازي (٧١٠هـ – ٧٨٣هـ) عُرفت بمحدثة الحرمين ومسندة مكة، لأنها تولت التدريس في الحرم الشريف بمكة، وكذلك بالمدينة المنورة حين جاورت المقام النبوي الشريف، كان أبوها رئيس الفتوى بمكة (ت ٧٥٥هـ)، وأمها سيدة بنت محُدّث مكة رضي الدين الطبري"([١٦١]).

ومن الملاحظ أن هؤلاء العلماء الذين درسوا بالمسجد الحرام لم يكن لهم منهج معين في التدريس، إذ كانت مناهج حلقات التدريس في المسجد الحرام متروكة للعلماء، يُدرس كل منهم من العلوم ما يراه مفيداً، ويختار الكتاب الذي يراه نافعاً للدارسين بالحلقة.

كما أنَّ تلك الدروس التي كانت تُدرس بالمسجد الحرام لم تكن قاصرة على طلاب العلم، والدارسين من أهل مكة، بل قد استفاد منها علماء، وطلاب علم قدموا إلى مكة من كل فج عميق في مواسم الحج.

كما أسهمت تلك الحلقات والدروس في الإجابة عن الأسئلة التي كانت ترد إلى علماء المسجد الحرام في مجال العقيدة، أو الفقه، أو العبادات، أو المعاملات. وكان يتناقلها المسلمون إلى أنحاء العالم الإسلامي بعد الانتهاء من أداء مناسك الحج والعمرة.

وكان التدريس في حلقات العلم في المسجد الحرام يختلف عن التدريس في المدارس التي كانت منتشرة حول المسجد الحرام في عصر المماليك، ولعل من أبرز تلك الاختلافات([١٦٢]):

- التدريس في حلقات العلم في المسجد الحرام كان مقتصراً على فئة خاصة جداً من العلماء هم قضاة مكة ومشايخ المقامات الأربعة، بينما من يقوم بالتدريس في المدارس هم دون ذلك في العلم، وفي مستوى المناصب الدينية.
- التدريس في حلقات العلم في المسجد الحرام في الغالب كان محصوراً على بعض الأسر العلمية كأسرة الطبري والفاسي، وآل فهد، وبن ظهيرة، والعسقلاني.. . وغيرهم، وجرت العادة أن يجعل المدرس بالمسجد الحرام نائباً له عادة ما يكون ابنه، أو أخاه، بخلاف التدريس في المدارس الذي قد يقوم به أي مدرس من مدرسي المدرسة.

([161])سبق الإشارة إليها.

([162])السخاوي: الضوء اللامع، (٤ / ٢٨٣)، وانظر الفاسي: العقد الثمين، (٥ / ٤٧٠).

- ليس هناك أعداد محددة للدارسين في حلقات العلم بالمسجد الحرام، فقد يصل حضور بعض دروس المسجد الحرام إلى مئات المستمعين والدارسين، في حين أن عدد الطلاب في المدارس لا يتجاوز المائة طالب، وذلك حسب شرط واقف المدرسة.

ثانياً: الأربطة وبيوت العلماء

تم إنشاء الأربطة حول المسجد الحرام لتوفر سُبل الراحة لطلاب العلم من المجاورين، والحجاج والزائرين في مواسم الحج والعمرة، ولتكون سكناً للمقيمين في مكة من الفقراء والمساكين، والمحتاجين.

وقد أدى وجود الأربطة في مكة إلى المساهمة في نشر الحركة العلمية، والجهود التربوية لعلماء المسجد الحرام، ولهذا نجد عناية سلاطين وأمراء المماليك، وغيرهم من التجار والأثرياء إلى العناية بالأربطة، وإيقاف الدور، والضياع عليها وزودوها بالمرافق والخدمات، كالمكتبات، وخزائن الكُتُب، ومياه الشرب، والخلوات، ودورات المياه، والوضوء وتسابق كبار العلماء، وطلبة العلم على السكن في تلك الأربطة، حيث كان يُعْقد فيها حلقات علمية، وتُلقى بعض الدروس.

كما كانت الأربطة مؤسسة تعليمية يُمنح فيها طلاب العلم الإجازات العلمية في مختلف العلوم والمعارف الدينية والعقلية، وهي أيضاً مكاناً لفتوى العلماء، وإجاباتهم على أسئلة طلابهم، وفيها يقوم العلماء بالتأليف والتصنيف في شتى المعارف والعلوم. " فنزل الشيخ الفقيه المقرئ المجود علي بن أحمد بن أبي بكر بن حسين المصري المكي (٧٨٦هـ) برباط السدرة، واشتهر بمعرفته بالقراءات، والفقه وأصوله، والعربية وغير ذلك، وصفه المؤرخون بالتواضع والتقشف والابتعاد عن التكلف"([١٦٣])

" وكان بعض الأمراء والأشراف ينزل في هذه الأربطة، فقد نزل الأمير عطيفة بن محمد الحسني، والأمير الشهاب أحمد العيني رباط أم الخليفة، ونزل ثقبة بن أبي نمي محمد الحسني، وأمير الحاج المظفر بن جقمق المؤيد في رباط الشرابي"([١٦٤]).

وكانوا يقيمون فيها المناسبات، ويدعون القضاة والعلماء إلى وليمة حافلة لمناقشة بعض المسائل العلمية، والشرعية التي دعوا من أجلها، فكانت هذه الأربطة سبباً من أسباب ازدهار الحياة العلمية في مكة.

كما كان لبيوت العلماء دور مهم أيضاً في نشر الجهود العلمية والتربوية لعلماء المسجد الحرام في عصر المماليك وسنشير هنا إلى بعض الأربطة التي أوقفها أصحابها على طلاب العلم، ونذكر أهمية بيوت العلماء في مكة ودورها في ازدهار الحياة العلمية في تلك الفترة، وذلك على النحو الآتي:

- **رباط دار العجلة**([١٦٥]): تقع شمال المسجد الحرام وقد وقف هذه الدار الصحابي الجليل عبد الله بن الزبير ﷺ اشتراها وعَجَّلَ في بنائها ولهذا سميت بدار العجلة، وقد بقيت في يد المماليك إلى سنة ٨٣٥هـ، حيث قام الطوشي خشقدم الزمام الظاهري برقوق (ت ٨٣٩هـ) بعمارتها مدرسة مرة أخرى، وجعل فيها خلاوي ليسكن فيها الفقراء ونزل بهذه الدار مجموعة من العلماء منهم أحمد بن عبد الله بن بدر بن مفرج العامري الغزي الدمشقي الشافعي (ت ٨٢٢هـ) المحدث

([163])الفاسي: العقد الثمين، (٦ / ١٣١). وانظر السخاوي: الضوء اللامع، (٥ / ١٦٥).
([164])السخاوي: الضوء اللامع، (٤ / ٢٨٣)، وانظر الفاسي: العقد الثمين، (٥ / ٤٧٠).
([165])ابن فهد: إتحاف الورى، (٤ / ٦٤)، الدرر الكمين: ص٩٧. وانظر العسقلاني: أبناء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، (٧ / ٣٦٣).

الفقيه، جاور مكة عدة مرات، ورحل في طلب العلم، فأخذ الفقه وأصوله، وعلم الحديث، حتى أصبح ليس له منافس، دَرّسَ الطلبة بالرباط، وتولى الإشراف على أوقاف الحرمين ـ

- **رباط السدة**[١٦٦]: يقع في الجانب الشرقي من المسجد الحرام بين باب السلام، وباب النبي ﷺ، وأصل هذا الرباط كان رحبة بين المسجد الحرام والمسعى، اقتطعها جعفر بن يحيى البرمكي من الخليفة هارون الرشيد، وتوالت عليها الأيدي حتى أصبحت رباطاً.

وفي سنة ٨٩٤هـ أمر السلطان قايتباي في منتصف شهر ذي الحجة بهدمه ثم إعادة بنائه، وأوقفه على رباطه وكان من نظار هذا الرباط المحدث الفقيه عبد القادر بن أبي القاسم بن أبي العباس أحمد بن محمد الأنصاري الخزرجي المكي المالكي (٨١٤هـ – ٨٨٠هـ) تولى قضاء مكة بجانب النظر في هذا الرباط، تصدر للإفتاء والتدريس، وعُرف بكثرة العبادة، والصلاة، والصيام، وله تصانيف كثيرة.

وقد سكن في هذا الرباط جماعة من العلماء منهم: الشيخ المجود برهان الدين إبراهيم المصري، كان أحد المجودين لقراءة القرآن الكريم، كانت له جهود تربوية في المسجد الحرام، فقد كان يُعلم الأيتام قراءة وتجويد القرآن الكريم في الرباط، بجانب قيامه بمساعدتهم من حيث المؤنة والكسوة من صدقات أهل مصر، والشام.

- **رباط الدمشقية**[١٦٧]: يقع الرباط بأسفل مكة، قيل: أوقفته زينب بنت عمر الدمشقية (ت ٦٩٩هـ) وكان شرط وقف هذا الرباط على الصوفية، والعلماء، والفقراء من أهل دمشق والعراقيين العرب والعجم، وأنشأ الواقف بالرباط بئراً يشرب منه ساكنو الرباط، ولم يكن لهذا البئر حاجز، حيث سقط فيها الشيخ الصالح قطب الدين الخنجي وتوفى على أثر ذلك سنة ٨٣٨هـ.

من نزلاء هذا الرباط المحدث أحمد بن محمد بن عثمان بن عمر بن علي بن عبد الله الفاسي الأصل، المقدسي المولد، المعروف بابن عثمان الخليل (٧٣٣هـ – ٨٠٥هـ) سمع بالقدس الشريف من عدد من العلماء، فتعلم وحدث، وجاور مكة عدة مرات، ونزل خلالها الرباط حتى توفي به، وصف بالخير، والصلاح والفضيلة.

- **رباط رامشت** [١٦٨]: كما يُسمى برباط العجم لنزول العجم فيه، كان يقع على يسار الداخل من باب الحزورة في الجانب الغربي من المسجد الحرام، بين باب الوداع وباب إبراهيم عليه السلام. وقد أوقفه غياث الحرمين أبو القاسم رامشت الحسين بن شيرويه بن جعفر الفارسي في شهر رمضان سنة ٥٢٩ه، واشترط أن يوقف هذا الرباط على جميع الصوفية الرجال دون النساء، أصحاب المرقعة من سائر العراق.

وممن تولى مشيخة هذا الرباط الشيخ العالم حيدر بن الحسين بن حيدر الفارسي (٦٨٠هـ – ٧٥٩هـ) تلقى العلم عن جماعة من كبار العلماء والمشايخ. ومن جهوده التربوية أنه انقطع بمكة قرابة أربعين عاماً للعبادة وطلب العلم، وصف بالخير، والصلاح، وكثرة العبادة والصلاة.

وولي مشيخة الرباط أيضاً الإمام العالم محمد بن محمود بن محمود بن محمد بن عمر الخوارزمي (ت ٨١٣هـ) كان عالماً بالنحو والصرف، وما تعلق بهما. كما كان له إلمام بالفقه.

([166])الفاسي: شفاء الغرام، (١ / ٣٣). وانظر السخاوي: وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، (٣ / ١١٣٨). ابن فهد: إتحاف الورى، (٤ / ٥٩٨). الطنجي: تحفة النظار في غرائب الأمصار، ص١٧٢. الشريف: مكة المكرمة كما جاءت في كتب الرحالة المسلمين، ص١٤٦.

([167])الفاسي: شفاء الغرام، (١ / ٣٣٥). العقد الثمين، (٣ / ١٥٤). وانظر ابن فهد: الدرر الكمين، لوحة١٩.

([168])النهر والي: الإعلام، ص١٩٤. الفاسي: العقد الثمين، (٢ / ٣٤٩). وانظر ابن فهد: إتحاف الورى، (٣ / ٥٢١). الفعر: تطور الكتابات، ص٣٣٠.

من جهوده التربوية توليه مشيخة الرباط وإمامة المقام الحنفي أكثر من ثلاثين عاماً، بجانب بعض الدروس التي تولى تدريسها بالمسجد الحرام.

"وممن تولى مشيخة الرباط العالم أحمد بن محمود بن محمد بن عمر الخوارزمي (ت ٨٥٠ هـ) ولد بمكة ونشأ بها، رحل في طلب العلم إلى مختلف الأقطار الإسلامية، أخذ الفقه عن أبيه، تولى مشيخة الرباط وكذلك إمامة المقام الحنفي عن والده أثناء مرضه، كان له جهود علمية وتربوية حيث تولى عدد من الوظائف في مجال العلم والتدريس وبرع في مجال علم الكيمياء "[١٦٩].

وممن نزل بالرباط العالم فضل الله ابن القاضي نصر الله العجمي الكسائي سمع على عدد من من العلماء بمكة وله مصنفات في مناسك الحج، وصف بكثرة العبادة والعمل في الحديث، توفي في الرباط سنة ٧٥٥هـ.

وأمَّا بيوت العلماء فقد أكدت المصادر التاريخية أنَّها كانت أحد وسائط التعليم في عصر المماليك، وهي تقوم في الأساس على تدريس العلماء لبعض أقاربهم خصوصاً من النساء، حيث كان العالم يتولى تدريس زوجته أو بناته أو حفيداته.

وربما تولت التدريس عالمة فاضلة من عالمات مكة، فدرَّست بعض محارمها من الرجال، أو قريباتها من النساء كما أن بعض الأبناء درس على يدي آبائهم، " فسمع عبدالله بن محمد العمري الحرازي المكي (ت ٨١٦هـ) من والده، وقرأ على عمته أم الحسن، كما اشتغل على علماء آخرين"[١٧٠].

ودرس موسى بن عيسى الزهراني الخالدي القرشي المخزومي (ت ٨٢٩هـ) الفقه على يد والده، وكان من جهوده التربوية أنَّ له عناية بإرشاد الجاهلين، والصبر على الإنفاق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يقتصر في الأخذ عن والده بل تتلمذ على شيوخ آخرين[١٧١].

وخديجة بنت الوجيه عبد الرحمن محمد بن محمد بن عبد الله بن فهد الهاشمية، والدة النجم عمر بن فهد توفيت سنة ٨٦٠هـ، سمعت من عمها النجم فهد، كما سمعت من غيره، وأجاز لها التقي بن حاتم، والشهاب بن ظهيرة وغيرهم، وقد حدثت، وسمع منها الفضلاء، وكانت محسنة للفقراء والأرامل[١٧٢].

وكان "نزيل مكة العلامة أحمد بن عبد العزيز بن أحمد الشيفكي الشيرازي (ت٨٣٩هـ) عالماً في مختلف العلوم، قيل عنه: كان إذا سُئل في علم أجاب فيه كأنه عالم متخصص فيه، وكان يُدَرس في منزله في رباط رامشت بالطابق الثالث صحيح البخاري، وعُرف بالخير والصلاح"[١٧٣].

ثالثاً: المكتبات وخزائن الكتب

تعد المكتبات وخزائن الكتب جزءاً من الجهود التربوية لعلماء المسجد الحرام في عصر المماليك، فالحياة العلمية لا تقوم إلَّا بتوافر الكتب العلمية، التي تُعد مناهج التعليم في المسجد الحرام في ذلك الزمان، والتي شملت مختلف فنون العلم والمعرفة، كما كانت خزائن المكتبات بمثابة الأوعية التي تُحْفظ فيها الكتب العلمية سواءً في المدارس، والأربطة وبيوت العلماء، والمساجد، والقصور.

---

[169] ابن فهد: الدر الكمين، لوحة ٨٦. وانظر السخاوي: الضوء اللامع، (٢ / ٧).
[170] السخاوي: الضوء اللامع، (٥ / ٤٦).
[171] السخاوي: الضوء اللامع، (١٠ / ١٨٨)
[172] السخاوي: الضوء اللامع، (١٢ / ٢٨).
[173] ابن حجر: أبناء الغمر، (٨ / ٣٩٣).

ووصل عناية سلاطين وأمراء المماليك، والأثرياء من التجار والمُوسرين، كبار العلماء إلى الاهتمام بوقف الكتب على وسائط ومراكز التعليم في مكة، والتي كانت بمنزلة المكتبات العامة في عصرنا الحاضر.

أما المكتبات الخاصة، فقد حرص السلاطين، والأمراء، والأغنياء، والأطباء، والعلماء على أن تكون لكلٍ منهم مكتبته الخاصة يرجع إليها ليتزود من العلم، ينهل منها العلم والمعرفة. ويستعين بها على التأليف والتصنيف، والتحضير للدروس، والرد على الأقران والخصوم.

وفي عهد المماليك ازدهرت المكتبات العامة في المدارس، والأربطة، والمساجد، حيث أصبح لكل منها كُتب خاصة بها، حسب التوجهات المذهبية الأربعة، فاعتنت بعض المؤسسات العلمية بكتب المذهب الشافعي، وأخرى بكتب المذهب الحنفي، أو المذهب المالكي، أو المذهب الحنبلي.

واعتنى بعض العلماء من أصحاب التوجهات الصوفية باقتناء وتدريس كُتب الزهد والتصوف والوعظ. مع الإشارة هنا إلى أن كُتب مذهب الزيدية، والشيعة لم تكن بذلك القدر من العناية والاهتمام.

وأبطل المماليك المذهب الفاطمي، وساروا على منهج صلاح الدين الأيوبي الذي " قضى على خزائن الدولة الفاطمية ومكتباتهم، لما كانت تتضمنه من عقائد مختلف طوائف الشيعة، وأفكار تتعلق بمذهب الفواطم، وتشتت ما تبقى من كُتبهم بيعاً على تجار الكتب، وعطاءً لبعض العلماء والقضاة، فضلاً عما أهداه صلاح الدين للمقربين إليه"([١٧٤]).

والحقيقية أنَّ اهتمام سلاطين المماليك واضحاً بالكُتُب كان واضحاً، حيث احتفظوا في قلعة الجبل – مقر السلطان المملوكي – بخزانة كُتب جليلة القدر حوت مجموعة كبيرة من الكتب في العلوم والمعارف المختلفة، كانت في الأصل تتألف من مكتبة القاضي الفاضل عبد الرحمن البيساني، التي آلت إلى ابنه الأشرف أحمد، وتم وضع اليد عليها، ونقلها إلى القلعة سنة ٦٢٦هـ "([١٧٥]).

ولا عجب أن يحتوي المسجد الحرام - باعتبار منزلته الدينية في قلوب المسلمين، ووجود كبار العلماء وطلاب العلم من المجاورين، وكونه نقطة التقاء العلماء من مشارق الأرض ومغاربها – لا عجب أن يحتوي الحرم الشريف على مجموعة كبيرة من الكتب، ونوادر خزائنها، التي تدعم الجهود التربوية في مكة المكرمة.

وتُشير المصادر التاريخية إلى " وجود مجموعات من الكتب في المسجد الحرام قد وزعت، وحُفظت في أماكن متفرقة من أروقته المتعددة، وفنائه الواسع، فقد وجد في الحرم المكي أكثر من مكتبة واحدة، وتُعدُ مكتبة المقام المالكي من أقدم هذه المكتبات، حيث يرجع تاريخها إلى القرن الخامس الهجري، ويُقال بأنها تحتوي على العديد من دواليب الكتب.

وكانت مكتبة المدرسة الشرابية ملاصقة للمسجد الحرام، حتى أُعِدَّت جزءاً منه، قد احتوت على مجموعات قيمة من الكتب في شتى المجالات العلمية والأدبية، إلَّا أنَّ معظم كتبها القيمة كانت قد فُقِدت، ولم يعد لها وجود في نهاية القرن العاشر الهجري"([١٧٦]).

([174])ابن كثير: البدايو والنهاية، (١/ ١٦٧). وانظر السيوطي: حُسْن المحاضرة، (٢ / ٣٤). ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، (٥ / ٣٣٦).

([175])عاشور: سعيد عبد الفتاح، العصر المماليكي، ص٣٣٣.

([176])مكي السباعي: مكتبات المساجد دراسة تاريخية، ص١٤٨. وانظر عبد الجبار: عبد الله: المكتبات في قلب الجزيرة العربية، ص٥٦.

وتُعد مكتبة مدرسة قايتباي إحدى أهم مكتبات الحرم المكي، حيث " أمر السلطان قايتباي سنة ٨٨٢هـ وكيله وتاجره الخواجة شمس الدين محمد بن عمر الشهير بابن الزمن ببناء مدرسة له في مكة المكرمة، وقرر فيها أربعة مدرسين على المذاهب الأربعة، وأربعين طالباً، وأرسل خزانة كتب وقفها على طلبة العلم، وجعل مقرها المدرسة المذكورة وجعل لها خازناً وعين له مبلغاً"([177]).

ثم أضيفت لهذه المكتبة مجموعة من محتويات كُتُب الإمام السخاوي، بعد أن أوصى بوقف كُتبه بعد وفاته بمدرستي السلطان قاتيباي في مكة والمدينة، وكان الإمام السخاوي ممن ورَّق لنفسه الكثير من الكتب"([178]).

ولعل سبب تخصيص السخاوي – رحمه الله – وقف كتبه على هذه المدرسة دون غيرها من مدارس مكة، أنَّ السخاوي درّس في مدرسة السلطان قايتباي بمكة.

والشيخ محمد بن محمد بن عمر الهندي الحنفي، جاور مكة، وسمع على جملة من العلماء وكبار المشايخ، تولى إمامة المقام الحنفي، بجانب أنه كان حكم بالإنابة في القضاء، وكان يُجيد نسخ الكتب، فأوقف جملة منها على رباط السدرة "([179]).

وكانت الكتب، والمصاحف تُحفظ في خزائن تقع تحت قبّة بين زمزم، وبين بيت الشراب وهو خلوة فيها بركة تُملأ من ماء زمزم، ويشرب منها الناس، وذكر ابن بطوطة: " أنَّ باب الشراب إلى جهة الشمال، وفيها تختزن المصاحف الشريفة والكتب التي للحرم، ولها خزانة تحتوي على تابوت مبسوط متسع، فيه مصحف كريم منسوخ سنة ثماني عشر من وفاة الرسول ﷺ "([180]).

لقد كان علماء المسجد الحرام، والمجاورون من طلاب العلم، يتنافسون على اقتناء نفائس الكُتب، ويعتنون بها اعتناء شديد، منهم: علي بن محمد الجيزي المعروف بابن الجريش (ت ٨٨٠هـ) كان مغرماً بتحصيل الكتب، بحيث اقتنى منها نفائس من كل نوع شراءً ونسخاً، حتى قيل أنها تساوي أربعة آلاف دينار"([181]).

وكان لبعض علماء المسجد الحرام جهود تربوية في تنشيط الحركة العلمية عن طريق إعارة الكتب ووقفها، لنشر العلم بين المسلمين، مثل: " النجم المرجاني (ت ٨٢٧هـ) كثير من نفائس الكتب، كان يسمح بإعارتها لطلاب العلم واجتمع للتقي بن فهد من الكتب ما لم يكن في وقته عند غيره من أهل البلد، وكثير انتفاع المقيمين والغرباء بها فكان ذلك أعظم قربة، خصوصاً وقد كان سمحاً في إعارتها لمن يعرف، ومن لا يعرف، وحبسها بعد موته"([182]).

في المقابل من ذلك قد نجد بعضاً من علماء المسجد الحرام، أو الذين يوقفون الكتب على المدارس أو الأربطة يضعون شرطاً عند إعارتها، أو يمتنعون عن إعارتها تماماً، وذلك خشيةً على ضياعها، أو خوفاً من سوء استعمالها عند إعارتها، أو قد يكون سبب منع إعارتها ضناً وبخلاً منهم.

فقد ذكر تقي الدين بن فهد: " أنَّ مُؤلّفات تقي الدين الفاسي، ومصنفاته، صارت جميعها كالعدم، لأنه أوقفها، وشرط أن لا تُعار لمكي. وأسند وصيته في ذلك، وغيره إلى أخيه لأمه الخطيب أبي اليمن النويري.. . فكان من شأنه إذا قصده آفاقي لاستعارة شيء منه تعذر له بالمعاذير التي

([177])ناجي معروف: المدارس الشرابية، ص٣١٩.
([178])السيوطي: نظم العقيان، ص١٥٢. وانظر الغزي: الكواكب السائرة، (١ / ٥٤).
([179])السيوط الفاسي: العقد الثمين، (٢ / ٣١٩). وانظر ابن فهد: إتحاف الورى، (٣ / ٣١٣).
([180])ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة (١ / ١٥٩).
([181])ابن فهد: الدر الكمين، (١ / ٨).
([182])السخاوي: الضوء اللامع، (٩ / ٢٨١).

ليست لائقة بالجهال، فكيف بمن ينسب نفسه إلى طلبة العلم، والورع، والصلاح. فإذا ثقل عليه أحد في ذلك، وكان ممن يخشاه أو يحترمه من ذوي الوجاهات من الغرباء أعاره بعض التصانيف، وتعلل عليه في باقيه بالزور من القول. وذكر السخاوي: "أن أبي اليمن النويري كان ضنيناً – بخيلاً – في إعارتها"([183]).

" وكان محمد بن علي بن محمد بن علي بن ضرغام البكري (ت ٨٠١هـ) لا يسمح بإعارة كتاب، ولا مطالعته وامتنع ابن طولون عن إعارة شرحه لكتاب " الهداية " لعبد العزيز بن محمد بن ركن الدين الكجراتي الهندي المكي خوفاً من انخرام النسخة"([184]).

وقد تعرضت كتب بعض علماء المسجد الحرام للضياع، إما لحاجة ورثة هذا العالم للمال فيقومون ببيعها بعد وفاته، أو لعدم معرفتهم بالقيمة العلمية لهذه الكتب. " فقد كان محمد بن أحمد الضياء القرشي العمري أبو البقاء (ت ٨٥٤هـ) الذي حَصَّل عدداً كبيراً من الكتب النفائس، أذهبها ورثته بالبيع. كما تعرض أحمد بن عز الدين بن الحسن الحسني (ت ٩٤١هـ) للنهب، حيث كان يحمل معه كتباً عظيمة، أخذها من خزانة والده أثناء رحلته لطلب الحديث بالمدينة، فنهبت بديار حرب"([185]). وذكر السخاوي: " أن عبد الله بن حجاج أبو محمد المغربي، الشهير بمكشوف الرأس (ت ٧٠١ هـ) كان من أكابر العلماء المطلعين على العلوم اليونانية، جمع من الكتب الجليلة ما لم يجمعه أحد من جنسه، أتى بها من بلاده، مشتملة على أصول، وأمهات ودواوين من تفسير، وفقه، وحديث وتاريخ، وطب، ومنطق، وحكمة، وعلوم شتى لا يعرفها أهل زماننا، ولا يفهمها إلَّا من عالج أصولها، وأدرك شيوخاً لكن الكتب أصابتها الأرضة والنار، وتبللت وذهب منها النقاوة والأحبار"([186]).

رابعاً: الوراقون

رسمت الحركة العلمية في المسجد الحرام في عصر المماليك تطوراً ملحوظاً في مجال التصنيف والتأليف وتسابق العلماء وطلاب العلم على اقتناء نفائس الكتب العلمية في مختلف العلوم والمعارف، وكان مصدر الحصول على هذه الكتب إما عن طريق القادمين إلى مكة لأداء مناسك الحج والعمرة، وإما عن طريق التجار، أو بعض العلماء وطلاب العلم الذين يأتون إلى المسجد الحرام للمجاورة، أو لطلب العلم.

إلَّا أن هناك مصدراً مهماً من مصادر تزود هؤلاء العلماء وطلاب العلم بتلك الكتب والمصنفات، وذلك عن طريق نسخ الكتب، ولهذا ازدهر في مكة المكرمة في تلك الفترة نشاط الوراقين الذين كثفوا جهودهم التربوية، وعملوا على نشر الكتاب وتوفيره في أسواق مكة المجاورة للمسجد الحرام.

وكانت ظاهرة اقتناء وجمع الكتب المهمة من العلماء وطلاب العلم للحصول على الجديد والمفيد منها، قد دفعت الوراقين إلى بذل جهودهم لتغطية الطلب المتزايد على الكتب، وتلبية لرغبات العلماء وطلاب العلم، والمهتمين بهذا الجانب من مرتادي أسواق الكتب وحوانيت النساخ، نظراً لكون الكتب مرتكزاً للعملية التعليمية في تلك الفترة.

كما صاحب الطلب المتزايد للكتب في المسجد الحرام، والإقبال عليها فرصة للعمل في مجال الوراقة آنذاك ومصدراً من مصادر الرزق، يَدُر على المشتغلين فيه أموالاً طائلة، "

([183])ابن فهد: الدر الكمين، ق١٣، وانظر السخاوي: الضوء اللامع، (٧ / ١٩).
([184])السخاوي: الضوء اللامع، (٩ / ١٩). وانظر الشوكاني: البدر الطالع، (٢ / ٣٨).
([185])ابن فهد: الدر الكمين، ق٦، وانظر الشوكاني: البدر الطالع، (٢ / ٣٨).
([186])السخاوي: التحفة اللطيفة، (٢ / ٣١).

فتكاثر النساخون بالأجر في مكة خلال عصر المماليك، الذين استعانوا بالنسخ لغيرهم للحصول على القوت"([187]).

" ولم يقتصر الأمر على النساخين، بل تعداهم ليشمل بعض العلماء وطلبة العلم الذين استعانوا بالنسخ لغيرهم للحصول على القوت، واشتهر العديد منهم بكثرة النسخ وتكراره، ومنهم إبراهيم بن محمد بن حسين المعروف بالموصلي المالكي (ت ٨١٥هـ) نزل مكة وجاور بها أكثر من ثلاثين عاماً، وكان له اهتمام كبير بالعلم بجانب اكتسابه من نسخ الكتب، كما أنه أدب الأطفال سنين كثيرة، ووصف بكثرة العبادة والطواف.

وكذلك الشيخ محمد بن محمد بن عمر النهدي الكابلي الحنفي، جاور مكة وسمع على جملة من العلماء وكبار المشايخ، وكان يُجيد نسخ الكتب، فأوقف جملة منها، تولى إمامة المقام الحنفي، بجانب أنه حكم بالإنابة في القضاء. وكان أبو القسم بن علي بن محمد الزبيدي المعروف بالشرف زبيدة (ت ٨٥٨هـ) قد حج وأقام بمكة ينسخ بالأجر"([188]).

وتُشير المصادر التاريخية إلى الجهود التربوية لعلماء المسجد الحرام في عصر المماليك، حيث تنوعت الكتب التي كان ينسخها الوراقون إما بالأجر، أو تطوعاً لخدمة مذهبهم، إذ لم تقتصر على كتب مذهبٍ معين بل تنوعت لتشمل كتب المذاهب الأربعة، وكتب بعض الفرق: كالصوفية، والشيعة، وكتب فلاسفة اليونان، وغيرهم.

" فهذا محمد بن أحمد بن علي المصري، نزيل مكة (ت ٨٠١هـ) كان من الوراقين الذين مالوا للصوفية ولجمع كتبهم، ومحمد بن عمر بن محمد بن عزم التميمي التونسي نزيل مكة (ت ٨١٩هـ) وكان ممَّن تكسب بتجارة الكتب واعتنى بتحصيل كتب ابن عربي، قال عنه السخاوي: اشتد حرصه على تحصيل تصانيف ابن عربي والتنويه بها وبمصنفها حتى صار داعية لمقالته، وركن إليه أهل هذا المذهب، فكان يجلب إليهم من تصانيفه ما ينمقه، ويحسنه فيرغبونه بثمنه.

كما عُرف محمد بن أبي بكر بن أبي القاسم الهمذاني السكاكيني الدمشقي (ت ٧٢١هـ) بتشيعه والدعوة لنحلته، وكان ممن عُني بنسخ بعض الأشياء، وجاور بالحرمين سبعة أعوام"([189]).

أبرز ملامح الجهود التربوية للوراقين في المسجد الحرام في عصر المماليك:

- **تزويد المكتبات العامة والخاصة بالكتب:** حيث كان حُب القراءة والتعلم، والاطلاع في كل العلوم سمة تميز بها سلاطين وأمراء المماليك، الأثرياء من التجار والوجهاء، بالإضافة إلى العلماء وطلاب العلم، فأصبحت هذه المكتبات من أبرز دعائم الحركة التربوية التي شهدها المسجد الحرام في عصر المماليك.

وتسابق السلاطين والأمراء، والوجهاء، والعلماء، وغيرهم إلى العناية بالمكتبات الخاصة، داخل قصورهم ومنازلهم، وكانت تُقام في المناسبات الخاصة بعض المناظرات بين العلماء، والحوارات الثقافية، والأدبية، وكان الكتاب نديماً يحضر في كل تلك المناسبات.

بل ربما تفاخر بعضاً منهم باقتناء نفائس الكتب في مكتبته الخاصة، وكان بعضهم يسمح بمطالعة أو إعارة بعض الكتب التي لا توجد في مكة إما لندرتها، أو لعدم وجودها أصلاً، أو لعدم القُدرة على شرائها. أمثال الإمام البارع النحوي محمد بن أبي بكر بن علي بن يوسف النوري،

([187])ابن فهد: الدر الكمين، (٢ / ٩٩٨).
([188])الفاسي: العقد الثمين، (٣ / ٢٤٩)، (٦ / ١٣١). وانظر السخاوي: الضوء اللامع، (١ / ١٣٧)، (٥ / ١٦٥).
([189])عواطف نواب: الرحلات المغربية والأندلسية، ص٢٥٣. وانظر الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص٢٣٧.

المعروف بالمرجاني (ت ٨٢٧ه) وكان ممن رحل في طلب العلم وعُنِي بفنون عدة، ومهر بالعربية ومتعلقاتها، كما درَّس بمكة وأفاد، وصنف فأجاد، وملك كتباً كثيرة نفيسة، وكان محسناً بعاريتها، وكان تحصيله لهذه الكتب بالشراء، والنسخ لما عُرف عنه من جودة لكتابته وسرعتها"([١٩٠]).

- **تزويد مكتبة المسجد الحرام بالكتب:** تشير المصادر التي تم الوقوف عليها إلى أن كُتُب المسجد الحرام قد تعرضت للتلف جراء الحريق الذي لحق المسجد الحرام* أو تعرض مكتبة المسجد الحرام للسرقة والنهب في بعض فترات عدم الاستقرار، والاضطرابات السياسية التي شهدتها مكة المكرمة في عصر المماليك.

فقام بعض الوراقين بنسخ الكتب ووقفها، أو وقف كتبهم الخاصة على مكتبة المسجد الحرام، وكان نصيب مكتبة المسجد الحرام من تلك الكتب الوقفية كبيراً جداً، مقارنة مع الكتب التي أوقفها الوراقون على المدارس أو الأربطة وذلك لمكانة المسجد الحرام وفضله في نفوس أولئك الوراقين.

" وكان ممن جوّد الخط، وبه تكسب، ثم وقف عدداً من الكتب التي نسخها قبل وفاته إبراهيم بن رجب بن حماد الرواشي العامري (ت ٧٥٥ هـ) الذي وقف أكثر كتبه في مكة، وكانت تحتوي مصنفات مختلفة في علوم الفقه، والأصول، والحديث، واللغة وغيرها.

وكذلك عبدالملك بن سعيد بن الحسن الكردي نزيل رباط السدرة (ت ٨٢٤هـ) الذي وقف كتبه بمكة كما وقف إبراهيم بن خليل بن محمد الداوي الحلبي (ت٨٤٠هـ) كتبه على طلبة العلم بمكة"([١٩١]).

- **تزويد المدارس والأربطة بالكتب:** لقد أدرك علماء المسجد الحرام في عصر المماليك أهمية الكتاب في نجاح العملية التعليمية، وضرورة توافره للعالم والمتعلم على حد سواء، ولهذا كان للمدارس التي أنشئت في عصر المماليك في مكة نصيب وافر من الاهتمام والعناية، فزودت تلك المدارس بالكتب في مختلف العلوم الدينية، والأدبية، والعلمية ونشطت الجهود التربوية للوراقين في نسخ كل ما تحتاجه تلك المدارس من كتب، وراجت حركة التأليف والتصنيف بين العلماء في تلك الفترة، وازدهرت الحركة العلمية بوجود كبار العلماء في المسجد الحرام.

وكان من أشهر تلك المدارس التي حوت مكتبة علمية تحتوي نفائس الكتب " المدرسة الشرابية، فقد اهتم الشرابي مؤسس هذه المدرسة، وأقام بها مكتبة ـ وأوقف عليها كتباً كثيرة في المذاهب الأربعة، وكذلك مدرسة السلطان قايتباي التي دعمت عند تأسيسها بالكثير من الكتب في عدد من التخصصات"([١٩٢]).

كما حظيت الأربطة باهتمام واسع في هذا الجانب، سواءً من واقفي الأربطة أنفسهم، أو من بعض الوراقين الذين دأبوا على نسخ بعض الكتب العلمية النافعة وتزويد مكتبات الأربطة بها.

وكان رباط بيع([١٩٣]) الذي واقفه الملك الأفضل علي بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٩٤هـ ووقف فيه مجموعة من الكتب، من أبرز الأربطة التي حظيت باهتمام

([190])الفاسي: العقد الثمين، (٣ / ١٥٨).

*** سبق الحديث عن قصة حريق المسجد الحرام.**

([191])عواطف نواب: الرحلات المغربية والأندلسية، ص٢٥٣. وانظر الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص٢٣٧.

([192])النهر والي: الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص١٧٧، ص٢٤٣. وانظر السخاوي: الضوء اللامع ـ (٦ / ٢٠٧).

([193])الفاسي: العقد الثمين، (٢ / ٢٤٦).

كبير من واقفي الكتب، ومن ذلك إيقاف بعض مؤلفات محمد بن عيسى بن سالم الأزدي الدوسي المعروف بابن حنيش (ت ٦٧٤هـ).

كما وقف عبد الله بن أبي بكر الكردي (ت ٧٨٥هـ) كتباً كثيرة في هذا الرباط، وكان علي بن محمد بن سند المصري، قد اقتنى مكتبة خاصة تبرع بها وقفاً على رباط ربيع أيضاً"([١٩٤]).

وإلى هذا الرباط نقلت أيضاً العديد من المكتبات الخاصة بعد وفاة أصحابها، مثل مكتبة إمام القراءات عبد الرحمن بن عياش الدمشقي نزيل مكة (ت ٨٥٣)، الذي حَصَّل جملة من كتب القراءات وغيرها، وأوقفها على نفسه، ثم على من سيحدثه الله له من الولد، ثم على سائر المسلمين، وجعل مقرها بعد موته برباط ربيع من مكة المشرفة، فلم يُعقِب، فنقلت بعد موته إلى الرباط المذكور، فانتفع بها المسلمون"([١٩٥]).

([194])الفاسي: العقد الثمين، (٥ / ١١٦)، (٦ / ٢٣١) .
([195])ابن فهد: الدر الكمين، (٢ / ٨٠١) .

المبحث الرابع: عناصر العملية التعليمية في المسجد الحرام في عصر المماليك.

تُعَرّف العملية التعليمية بأنها: عبارة عن مجموعة من التفاعلات، والأنشطة، التي تهدف إلى نقل المعرفة الصحيحة، وإيصالها لوجهتها المناسبة، وحتى تتمّ العملية التعليمية بشكلها الصحيح وتترتب عليها آثارها، وتؤتي ثمارها المرجوّة، فلا بدّ من توافر مجموعة من العناصر تتعلّق بأهداف العملية التعليمية، ومناهج التعليم، أو ما يُسمى بالمحتوى الدراسي، والطالب، والمعلم، وأساليب التدريس، وغير ذلك من عناصر العملية التعليمية، وهي كالتالي:

أولاً: أهداف العملية التعليمية في المسجد الحرام في عصر المماليك

يتمثل الهدف التربوي العام للعملية التعليمية في المسجد الحرام في عصر المماليك، تحقيق العبودية لله تعالى واعتبار التعليم في تلك الفترة وسيلة لتحقيق العبودية لله - عز وجل -.

وعن طريق التعليم يتوصل المتعلم إلى المعرفة الحقة بعظمة الخالق – عز وجل - ثمّ بعلاقة الإنسان بالكون والحياة وبذلك تتضح العلاقة القائمة بين العبد المخلوق، وبين المعبود الخالق المستحق للعبادة والطاعة. ويتفرع عن هذا الهدف العام أهداف فرعية أخرى يسعى التعليم في المسجد الحرام في عصر المماليك إلى تحقيقها، ويمكن تلخيص أهداف العملية التعليمية في المسجد الحرام في تلك الفترة على النحو الآتي:

١. **البناء العلمي:** العلم في الشريعة الإسلامية هدف يسعى إليه المسلم، وهو قُربة وعبادة لله تعالى، ولهذا قال الماوردي لبعض طلابه: " تعلم العلم فإنه يُقومُك ويسددك صغيراً، ويُقدمُك ويسودك كبيراً، ويُصْلِحُ زيفك وفاسدك ويرغم عدوك وحاسدك، ويُقوّم ميلك وعوجك، ويُصحح همتك وأملك "([١٩٦]).

وكان العلماء في عصر المماليك قد تميزوا بالبناء العلمي، مما يدل على قوة ومتانة البناء العلمي، الذي تربى عليه علماء المسجد الحرام خلال تلك الفترة، ومن هؤلاء العلماء:

تقي الدين الفاسي: أبو الطيب محمد بن أحمد بن علي المكي المالكي الحسني (٧٧٥ه – ٨٣٢ه) فقيه مالكي ومؤرخ وعالم بالحديث، ولد بمكة وقضى نشأته الأولى في المدينة المنورة لانتقاله مع أمه إليها. ورجع إلى مكة وهو شاب يافع، وبدأ في جمع العلم من الشيوخ المكيين والمجاورين، وفي سنة ٧٨٩هـ كان قد حفظ القرآن وصلى بالناس التراويح في المسجد الحرام.

رحل لطلب العلم سنة ٧٩٦هـ، فكان ينتقل من المدينة إلى القاهرة ، ودمشق ، وبيت المقدس ، والإسكندرية وقام برحلتين إلى مصر والشام، كانت كل منهما تدوم ثلاث سنوات، كما رحل إلى اليمن.

بدأ التدريس في الحرم المكي بإذن من الحافظ الزين العراقي سنة ٨٠٠هـ، وبعد سبع سنوات تولى قضاء المالكية بمكة، وهي أول وظيفة قضاء للمالكية حدثت بمكة، تولاها عشر سنوات متتالية"([١٩٧]).

وللفاسي جهود تربوية في مجال التأليف والتصنيف فيما يختص بعلماء المسجد الحرام، ومن أبرز مؤلفاته:

أ- الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة.

([196])الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص١٤٧.
([197])ابن كثير: البداية والنهاية، (١٤ / ١٦٣). وانظر ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، (٣ م ٢٨٢).

ب- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين.

ج- المقنع من أخبار الملوك والخلفاء وولاة مكة الشرفاء.

د- إرشاد الناسك إلى معرفة المناسك.

ه- إرشاد ذوي الأفهام لتكميل كتاب الأعلام.

و- تحصيل المرام من تاريخ البلد الحرام.

ز- تحفة الكرام بأخبار البلد الحرام،، وسماها أيضا: عجالة القرى للراغب في تاريخ أم القرى.

ح- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام.

ط- فهرس شيوخه بالسماع والإجازة.

ي- ولاة مكة في الجاهلية والإسلام.

- **النجم بن فهد:** مؤرخ مكة أبو الطيب عمر بن محمد بن محمد بن أبي الخير محمد بن محمد بن عبد الله بن فهد القرشي الهاشمي المكي، نجم الدين (٨١٢هـ – ٨٨٥هـ) رحل إلى مصر والشام وغيرهما، من أشهر مؤلفاته التي كتبها عن تاريخ مكة وعلماء المسجد الحرام:

أ- إتحاف الورى بأخبار أم القرى

ب- التبيين في تراجم الطبريين. ترجم فيه لعلماء أسرة الطبري، أحد الأسر العلمية في مكة.

ج- الدر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين.

د- ذيل تاريخ مكة للتقي الفاسي.

ه- بذل الجهد في من سمي بفهد، وابن فهد.

و- المشارق المنيرة في ذكر بني ظهيرة. ترجم فيه لعلماء أسرة آل ظهيرة، أحد الأسر العلمية في مكة.

٢. **البناء العقدي:** من أهداف العملية التعليمية لعلماء المسجد الحرام في عصر المماليك غرس العقيدة الإسلامية الصحيحة في نفوس المتعلمين، ولعل فترة المماليك كانت من فترات التاريخ الإسلامي التي شهدت صراعات فكرية ومذهبية واعتقادية، حيث كانت مصر هي مركز خلافة دولة المماليك، ومعلوم أن المماليك كانوا على مذهب أهل السنة والجماعة، ويُوالون الخلافة العباسية في الشام، والجزيرة العربية.

في حين كانت الدولة الفاطمية التي تعتقد بالمذهب الشيعي، ولهذا فقد حارب سلاطين المماليك هذه العقيدة الفاسدة، وأخرجوا علماء المذهب الزيدي من المسجد الحرام الذي كان عليه أمراء الأشراف الحسنيين في ذلك الوقت. وقد ظل حكام مكة يعتنقون المذهب الزيدي حتى زمن المماليك. فقد ذكر ابن تغري بردي: " أن صاحب مكة كان رافضياً خبيثاً"[١٩٨].

" ففي سنة ٧٢٦هـ وصل مرسوم من السلطان المملوكي إلى أمير مكة بإبطال مقام الزيدية، وإخراج الزيديين من المسجد الحرام، وألّا يكون لهم إمام فيه، فدخل أمير مكة الشريف عطيفة إلى المسجد الحرام، وأخرج إمام الزيدية إخراجاً عنيفاً.

---

[198] ابن تغري بري: النجوم الزاهرة، (٥ / ١٠٩).

وذكر ابن بطوطة: " في سنة ٧٥٤هـ قبض أمير الحاج المصري على إمام الزيدية أبي القاسم محمد بن أحمد اليمني، وكان يُصلي في الحرم بأنصاره، وقد نصب له منبراً يخطب عليه يوم العيد، فضربه أمير الحاج المصري بالمقارع ضرباً شديداً، حتى يرجع عن مذهبه، فأبى، فأمر بسجنه، ففر من السجن إلى وادي نخلة، وفي نفس العام ضرب أحد أمراء المماليك مؤذن الزيدية حتى مات"([١٩٩]).

ومن الجهود التربوية في مجال البناء العقدي بالمسجد الحرام أن قطب الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن علي بن محمد القيسي العسقلاني المكي الشافعي (٦١٤هـ – ٦٨٦هـ) كان يُنكر على ابن سبعين الصوفي الاتحادي، الذي جاور بمكة، وكانت له حظوة عند أميرها، وكان يدعو إلى بدعته ويقوي ظهره بالأمير، حتى لا يُنكر عليه.

قال الصلاح الصفدي: " أخبرني الشيخ أثير الدين شفاهاً، قال: سَمِعْتُ عليه – يعني قطب الدين – الحديث وله تواليف لطيفة، وكان بينه وبين ابن سبعين عداوة، إذ كان يُنكرُ عليه بمكة كثيراً من أحواله، وقد صنَّف في الطائفة التي كان يسلُكُ طريقهم ابن سبعين، وبدأ بالحلاج، وختم بالعفيف التلمساني"([٢٠٠]).

٣. **البناء التعبدي:** يتجلى الهدف التعبدي هنا بما تميزت مكة المكرمة عن سائر بلاد الدنيا من قدسية المكان وشرف المقام، فهي قبلة المسلمين، وفيها البلد الأمين، الصلاة فيها بمائة ألف صلاة، ولهذا رحل إليها العلماء وطلبة العلم من كل أقطار الدنيا، رغبة في مجاورة البيت الحرام، وقضاء فترة صفاء روحي، والتقرب إلى الله بسائر العبادات من حج وعمرة، وطواف بالبيت، وخلوة يناجي فيها العبد ربه، فالصلاة في المسجد الحرام ليس كالصلاة في غيره من المساجد، وكذا الصوم، وقيام الليل، وصلاة التراويح.

ولهذا كان الهدف التعبدي دافعاً قوياً حرك شريحة كبيرة من العلماء، وطلاب العلم لمجاورة المسجد الحرام، فعاشوا حياة الورع، والزهد، وفَضَّل معظم العلماء وطلاب العلم البقاء في مكة أطول فترة ممكنة، بل إن من العلماء من قدم إلى مكة في أواخر حياته ليختمها في هذا المكان الشريف، ومنهم: " محمد بن عمر بن محمد التوزري القسطلاني (ت ٦٦٣ه) ومحمد بن يوسف بن موسى الأزدي المعروف بابن مسدي الأندلسي (ت ٦٦٣ه)، وعبد الصمد بن عبد الوهاب الحسن بن عساكر الدمشقي (ت ٦٨٦ه)" ([٢٠١]).

فالمسجد الحرام لم يَخْلُ يوماً من العُباد والزهاد المنقطعين بالعبادة عن علائق الدنيا، ولعل هذا ما يفسر وجود بعضاً من المتصوفة في مكة المكرمة، ووقف كثير من الأربطة في عصر المماليك على هذه الفئة. " وقد تكاثر هذا النوع من المجاورين آنذاك، نظراً لتكاثرهم في العالم الإسلامي، ولوجود عدد من مشاهيرهم فيها، فضلاً عن مساهمة بعض الأربطة المخصصة لهم في مكة آنذاك في تشجيعهم على المجاورة فيها"([٢٠٢]).

٤. **البناء المهني:** اهتم الإسلام بجانب العمل اهتماماً كبيراً لما له من أهمية في حياة الأفراد والمجتمع، إذ على المهن والأعمال يُبْنى اقتصاد الأمة، وتتقدم في كافة مجالات الحياة المختلفة. وقد أثنى الإسلام على المؤمن العامل الذي يأكل من كسب يده، ويسعى في تحصيل رزقه ليتعفف عن سؤال الناس.

([١٩٩])ابن كثير: البداية والنهاية، (٧ / ٥١٧). وانظر ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، (١ / ١٨٤)، (١ / ٢٦١).
([٢٠٠])معتوق: علم الحديث في مكة المكرمة خلال العصر المملوكي، ص١٣٦.
([٢٠١])الفاسي: العقد الثمين، (٢ / ٢٣١)، (٢ / ٤٠٨). وانظر الصفدي: الوافي بالوفيات، (١٨ / ٢٧١).
([٢٠٢])السنيدي: المجاورون في مكة وأثرهم في الحياة العلمية، ص٢١.

ومن تأمل حياة العلماء وطلاب العلم في المسجد الحرام في عصر المماليك، يجد أنَّ البناء المهني من أبرز أهداف التعليم في تلك الفترة، فكان من العلماء من عمل بالقضاء، ومنهم من عمل بالإفتاء، والتدريس، والخطابة ومنهم من كان يشتغل بالتجارة، وعمل بعضهم وراقاً ينسخ الكتب.

وقد أشارت كُتُب تراجم العلماء إلى شيء من سير العلماء وطلاب العلم الذين عملوا في بعض المهن مثل:

- **القضاء**([٢٠٣]): وكان هذا المنصب من أجل المناصب في مكة، إذ يُعد القضاء الوظيفة الثانية بعد ولاية مكة وكان قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن ظهيرة المكي (ت ٧٩٢هـ) أول من تولى القضاء من هذه الأسرة، وبعد سنوات تولى قضاء مكة محمد بن عبدالله بن ظهيرة (ت ٨١٧هـ)، وكان من تلاميذه قاضي القضاة الحافظ العالم الكبير شهاب الدين بن حجر العسقلاني.

- **الإمامة والخطابة**([٢٠٤]): وهذه الوظيفة تُعتبر من أهم الوظائف وأرفعها بعد القضاء، ومعلوم أن للمسجد الحرام في عصر المماليك أربعة أئمة، لكل مذهب إمام، وقد كان لإمام وخطيب المسجد الحرام منزلة عالية، وشأن رفيع عند سلاطين المماليك، وأمراء مكة. وقد أشاد ابن بطوطة بخطيب مكة، بهاء الدين الطبري، ويذكر أنه يُنشئ لكل جمعة خطبة ثم لا يكررها فيما بعد.

– **أغوات المسجد الحرام**([٢٠٥]): وهم فئة من الناس تعمل على خدمة المسجد الحرام، وهم المسئولون عن نظافة المسجد الحرام، وكان أول من استخدمهم صلاح الدين الأيوبي في أيام ولايته، ثم استمر عملهم في عصر المماليك وقد جرت العادة أن يكون الرئيس عليهم أقدمهم خدمة.

وكان من وظائف هذه الفئة وضع الشمعدان على أبواب الكعبة، وإضاءة قناديل المسجد الحرام التي على الأساطين المحاطة بصحن المطاف، والمقامات الأربعة، وتنظيف المقام، وحجر إبراهيم، وصحن المطاف.

– **التجارة والعمارة**([٢٠٦]): وهما من المهن التي عمل بها بعض علماء المسجد الحرام وطلاب العلم في عصر المماليك منهم: عبد الله بن علي بن عرفة المكي (ت ٧٦٧هـ) كان من تجار مكة، وجار الله بن زايد بن يحيى السنبسي المكي (ت ٧٩٠هـ) من تجار مكة.

وعمل عبد الرحمن بن محمد بن علي بن عقبة المكي بعمارة الحرم، وكان خبيراً بالهندسة والعمارة، وقد مارس ذلك عدة سنين، وكان يخدم الناس كثيراً في ذلك، توفي سنة ٨٢٦هـ.

ثانياً: مناهج التعليم في المسجد الحرام في عصر المماليك

ويقصد بمناهج التعليم الكتب المقررة، والتي كان يَدْرُسها المتعلمون في المسجد الحرام في عصر المماليك، وهي مقررات ومناهج كانت مناسبة لمستويات الطلاب الإدراكية، وذلك لتنوعها وتعددها، ومخاطبتها لمستويات طلاب العلم في تلك الفترة، كما أنها كانت مراعية للفروق الفردية بين المتعلمين، ومناسبة للفئة العمرية، ابتداءً من سن الكتاتيب وانتهاءً بكبار السن الذين تجاوزت أعمارهم الخمسين سنة وأكثر. ويمكن تقسيم مناهج التعليم في تلك الفترة إلى:

- **مناهج تعليم الأطفال:** كان بمكة المكرمة طبقة ميسورة تمثلت في أبناء الأمراء، والتجار، والعلماء، وكانت هذه الطبقة تُعلم أطفالها في المنزل، وكان يقوم مؤدب الأطفال، والذي عادة ما

([203])الفاسي: العقد الثمين، (٣ / ٥٣). وانظر ابن حجر العسقلاني: أنباء الغمر بأنباء العمر، ص٤٨٦. السخاوي: الضوء اللامع، (٨ / ٩٢).

([204])ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، (١ / ١٦٩).

([205])حسين باسلامة: تاريخ عمارة المسجد، ص٣٦٣.

([206])الفاسي: العقد الثمين، (٥ / ٢١١)، (٥ / ٤٠٤). وقد سبق الحديث عن بعض هذه بعض المهن عند الحديث عن العوامل الاجتماعية ص٢٢.

يكون من أهل الفضل والصلاح، ومجوداً لكتاب الله تعالى، عارفاً بالقراءة والكتابة، والنحو، والحساب، والأدب وغيرها من العلوم المختلفة، ولا يُشترط في مؤدب الأطفال أن يكون عالماً متبحراً في العلم ".

ويكون سن الطفل في هذه المرحلة ما بين الرابعة إلى الثامنة، أو دون ذلك بقليل، قال الحجازي: " وينبغي أن يدخل المكتب في آخر الأربع سنين، فقد قال بعض المشايخ بطوس، وكان عالماً إنه جرب ذلك، ما دخل صبيّ في هذا السن إلَّا كان فقيهاً، أو عالماً، أو ذا شأن"([٢٠٧]).

وفيها يُعلم الطفل العلوم الأساسية، حيث يتعلم كتاب الله أولاً، ثم يتعلم القراءة والكتابة، وبعض مبادئ الدين كالطهارة والصلاة، وبعض الآداب مثل: آداب الصلاة، والطعام، والخلاء، والنوم، والاستئذان وغيرها من المبادئ، ثم في المرحلة الثانية: يُعلم الحساب، والنحو، والشعر، وأيام العرب وأخبارها، وتعليم الخط وتجويده، ويُعَوِده مؤدبه على فعل الخير ويُقَوّمُ عليه، ويُحذرُه من فعل الشر، لأن أقوم التقويم وأنفعه ما كان في سن مبكرة.

قال ابن الجوزي([٢٠٨]): "وأقوم التقويم ما كان في الصغر، فأما إذا تُرِك الولد وطبعه فنشأ عليه ومرن كان رده صعباً ".

وقال الشاعر: إنَّ الغصون إذا قومتها اعتدلت ولا يلين إذا قوّمته الخشب

قد ينفع الأدب الأحداث في صغرٍ وليس ينفع في ذي الشيبة الأدب

- **مناهج تعليم الأطفال في الكتاتيب:** لا تختلف مناهج التعليم في الكتاتيب عنها في المنازل والقصور، إلَّا أن التعليم في الكتاتيب أقل جودة، وذلك لكثرة أعداد الطلبة، ولانشغال معلم الصبيان بتعليمهم في وقت واحد.

كما أنَّ مناهج التعليم في الكتاتيب تُركز أكثر على تعليم كتاب الله، وشيء من الكتابة، والقراءة، والحساب فقط ولا يُركز فيها على تعليم اللغة، والشعر، والسير، وأنساب العرب.

- **مناهج تعليم الفتاة:** اهتم علماء المسجد الحرام في عصر المماليك بتعليم الفتاة خاصة فتيات الأسر العلمية كأسرة الطبري، والفاسي، وابن فهد، وابن نويرة، وغيرها من الأسر العلمية في مكة، كما اهتم بعض أهل مكة بتعليم بناتهم إلَّا أن هذه الطبقة من غير الأسر العلمية لم يكن اهتمامهم بتعليم الفتاة بنفس اهتمام العلماء من الأسر العلمية.

وكان منهج تعليم الفتاة في تلك الفترة يعتمد على تعليم القرآن الكريم، وعلومه، وعلم الحديث، واللغة العربية والسيرة والتاريخ، ولعل هذا ما يفسر أن أغلب عالمات مكة في تلك الفترة من المحدثات.

وكانت المناهج التي تدرس للفتاة تختلف عن مناهج تعليم طلبة العلم من الذكور، فلم تكن الفتاة تُدَرَّسُ الشِّعر وخصوصاً الأشعار التي فيها غزل، كما كان تعليم الفتاة يعتمد على الحفظ، وليس على الكتابة، كما كان بعض العلماء يُحذر من تعليم الفتاة القَصَصَ كقصة يوسف عليه السلام.

وكان شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي الحجازي (ت ٨٧٥هـ) يقول: " ولا تحفظ الصبي والصبية من الأشعار فيها ذكر العشق، والحذر من أن تُعلم لبنت سورة يوسف([٢٠٩])، ولا تُعلم

([207])الحجازي: كتاب تربية الأولاد، ص٤١٢ وذكر بعض السلف أنهم كانوا يُقرئون أولادهم في سن السابعة. انظر ابن الحجاج العبدري: المدخل، (٢ / ٣١٥)

([208])الحجازي: كتاب تربية الأولاد، ص٤٠٤.

([209])أورد هذا النهي السيوطي في الحاوي للفتاوى: (١ / ٢٢٧) نقلاً عن القاضي عياض في كتاب الشفا، وشيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الرد على الاخنائي، ولم يناقش العبارة. وانظر روح المعاني: (٢ / ١٧٦)، و الإتقان

الكتابة([٢١٠])، ويُحْكى أنه مر حكيم بمعلم يعلم امرأة الكتابة فصاح عليه، وقال: لا تزيد النار حطباً([٢١١])، ويُستحب أن يعلمها سورة النور"([٢١٢]).

وقد وضع بعض العلماء شروطاً لتعليم الفتاة منها([٢١٣]):

١. أن يقوم بتعليم الفتاة معلمة من النساء، أو أحد أقاربها من الأسرة كوالدها، أو أحد محارمها.

٢. أن لا يكون التعليم في مكان مختلط، تختلط فيه الفتاة بالرجال الأجانب.

٣. أن تُعلَّم من العلوم ما ينفعها في دينها ودنياها، كحفظ القرآن الكريم، والحديث، والفقه الذي تتعلم من خلاله أحكام الطهارة، والصلاة، والزكاة، والحج وغيرها.

- **مناهج التعليم في المسجد الحرام:** بعد سن العاشرة يكون الطالب في الكتاتيب قد أتم بعض مناهج التعليم فيكون قد أتم حفظ القرآن الكريم، وتعلم القراءة والكتابة، وحفظ شيئاً من أشعار العرب وأخبارهم. بعدها ينتقل إلى التعليم في المسجد الحرام، حيث يوجد العلماء الكبار.

ويبدأ التنافس بين طلبة العلم، حيث ينتقل الطالب إلى تعلم مناهج أوسع وأشمل، فيبدأ في هذه المرحلة بتعلم علوم الآلة، حيث يبدأ بحفظ بعض المختصرات في مختلف العلوم الدينية، واللغة العربية، بينما بعض العلوم كعلم الحساب، والمنطق، والهندسة، والطب، والفلك، وهي علوم أكثر تخصصاً تكون في مرحلة لاحقة لهذه المرحلة.

فيبدأ الطالب بعلم الحديث فيحفظ الأربعين النووية للإمام النووي، وفي علم المصطلح يحفظ نخبة الفكر لابن حجر العسقلاني، والبيقونية في مصطلح الحديث، ثم يحفظ متن الرحبية في علم الفرائض، وفي علم اللغة يحفظ الآجرومية وشرحها التحفة السنية شرح الآجرومية.

" أما في الفقه يحفظ الطالب في هذه المرحلة بعض المختصرات حسب مذهبه الفقهي، فطلبة العلم من اتباع المذهب الشافعي فيحفظون: المنهاج للإمام النووي، والعمدة للإمام أبي بكر محمد الشاشي، والتنبيه للإمام أبي إسحاق إبراهيم الشيرازي.

أما طلبة العلم من اتباع المذهب الحنفي فيحفظون: كتاب كنز الدقائق للإمام أبي البركات عبد الله بن أحمد النسفي، وكتاب المختار في فروع الحنفية لأبي الفضل مجد الدين عبدالله بن محمود الموصلي الحنفي.

في علوم القرآن: (٣ / ٢٣١) و البرهان في علوم القرآن، و الكليات لأبي الفداء الكوفي، كلهم قال: وقد صحح الحاكم حديث النهي عن تعليم النساء سورة يوسف ". ولم أقف عليه عند الحاكم، بل وجدته في كتب الشيعة كما في كتاب الكافي للكليني: (٥ / ٥١٦) وكتاب من لا يحضره الفقيه: (١ / ٣٧٤)، و تهذيب الأحكام: (٨: ١١٢)، و أحكام النساء للمفيد: ص٥٦ و وسائل الشيعة للبحر الغاملي: (٢٠ / ١٧) باب كراهة إنزال النساء وتعليمهن. قلت: وهذا النهي يتعارض مع الأحاديث الصحيحة الواردة في فضل تعليم القرآن وتعلمه، وهي عامة تشمل الرجال والنساء على حد سواء.

([210])رُوي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: " لا تُنزلوهن الغرف، ولا تُعلموهن الكتابة – يعني النساء – وعلموهن الغَزْلَ وسورة النور " أخرجه الحاكم في المستدرك: (٢ / ٤٣٠)، وقال: صحيح الإسناد. وتعقبه الذهبي، وقال: بل موضوع. وأخرجه أيضاً البيهقي في شعب الإيمان: (٢ / ٤٧٧) وقال: إسناده منكر، وحكم عليه الشيخ الألباني بالوضع، السلسلة الصحيحة: رقم: (٢٠١٧).

([211])ذُكِرَ أن علياً ﷺ مر على رجل يُعلم امرأة الخط، فقال: " لا تزد الشر شراً ". القلقشندي: صبح الأعشى، (١ / ٩٦).

([212])الحجازي: كتاب تربية الأولاد، ص٤١٣.

([213])السخاوي: الضوء اللامع، (١٢ / ١٤٨). وانظر ابن سحنون: آداب المعلمين، ص٣١٦. القابسي: الرسالة المفصلة، ص٢٧١.

ويحفظ طلبة العلم من المالكية: رسالة الإمام أبي زيد المالكي القيرواني، ومختصر الشيخ خليل المالكي. وأما الحنابلة فيحفظون: كتاب عمدة الأحكام، وكتاب المقنع للإمام موفق الدين عبد الله بن أحمد ابن قدامة([٢١٤]).

وعند انتهاء الطالب من حفظ علوم الآلة، وهي أساسيات العلم، ومبادئ المعرفة تبدأ مرحلة أخرى في طلب العلم، تكون أوسع في الاطلاع والتخصص، وتأهله ليكون طالب علم واسع الاطلاع والتبحر في العلم، فينتقل من المختصرات إلى المطولات، ومن المتون إلى الشروح.

ففي علم الحديث يبدأ بحفظ صحيح الإمام البخاري، وصحيح الإمام مسلم النيسابوري، والمستدرك على الصحيحين للحاكم،، ثم يبدأ بعد ذلك بحفظ أبي داوود، وسنن النسائي، وسنن الترمذي، وسنن ابن ماجة، موطأ الإمام مالك ابن أنس الأصبحي، ومسند الإمام أحمد بن حنبل، ومسند الدارمي. وفي اللغة يحفظ ألفية ابن مالك ويقرأ شرح ابن عقيل عليها، ويتوسع في قراءة كتب النحو والصرف، والمعاجم، وكتب البلاغة، والأدب شعراً ونثراً.

وفي الفقه تكون مناهج التعليم في هذه المرحلة أكثر عمقاً وتوسعاً، فيقرأ المطولات في الفقه من كتب المذهب ثم ينتقل إلى قراءة كتب فقه المذاهب الأربعة، وبعدها يقرأ في الفقه المقارن. ويقرأ كتب السير، والتراجم، وكتب العقيدة، والمذاهب والفرق، والقراءات، وغيرها من مناهج التعليم، الذي يفنى العُمر قبل فنائها.

وعند انتهاء طالب العلم من ذلك، تبدأ مرحلة التخصص في علم من هذه العلوم حسب ميوله ورغبته وإدراكه العقلي. وتبدأ معها الرحلة في طلب ذلك الفن، وتتبع كبار العلماء فيه عبر الرحلة إليهم في كل الأقطار.

ثالثاً: آداب العالم والمتعلم:

يُعد العالم (المُعلم): وسيطاً أو ناقلاً للمعرفة، ولهذا لا بدّ من توافر بعض الصفات لديه، مع توافر الأمانة العلمية، لتصل المعرفة صافية نقية للمتعلمين وطلبة العلم، من غير تشويه، أو تحريف، أو تبديل، أو نسيان لعناصرها، أو تجاهل لبعض محتوياتها.

مستعيناً في ذلك بمجموعة من الوسائل والأساليب، التي تعينه في إيصال ما لديه من علم ومعرفة، وفي ذات الوقت تشجّع المتعلّمين وطلبة العلم على التلقّي والتزود من العلم، والمشاركة الحقيقية والفاعلة، في اكتساب العلوم.

المتعلم (الطالب): باعتباره أحد عناصر العملية التعليمية وأطرافها؛ فلا بدّ من توافر الاستعداد التام، وتلقي المعرفة للتفاعل الإيجابيّ معها، وبدون ذلك قد تفقد العملية التعليمية قيمتها وجدواها.

وقد كتب في موضوع صفات العالم والمتعلم جماعة من العلماء الذين جاوروا بالمسجد الحرام في تلك الفترة منهم: الإمام القاضي بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله ابن جماعة الكناني الشافعي (٦٣٩هـ – ٧٣٣هـ) في كتابه: تذكر السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم.

وكتاب: آداب العالم والمتعلم والمفتي والمستفتي وفضل طلب العلم للإمام أبو زكريا يحيى بن شرف الحزامي النووي الشافعي المشهور بالنووي (٦٣١هـ – ٦٧٦هـ) مُحدّث وفقيه ولغوي، اشتهر بكتبه وتصانيفه العديدة في الفقه والحديث واللغة والتراجم، حج وجاور بالمسجد الحرام. حيث ذكروا أن واجبات العالم تتمثل في ثلاثة أمور:

([214])**الطاسان: التعليم في مكة في العهد المملوكي، ص ٢١. " بتصرف ".**

أولاً: من آداب العالم([٢١٥]):

١. الإخلاص والصدق، وإحضار النية في جميع الأعمال البارزة والخفية، وأن يقصد بتعليمه وجه الله تعالى، ولا يقصد توصلا إلى غرض دنيوي، كتحصيل مال، أو جاه، أو شهرة، أو سمعة، أو تميز على الأشباه، أو تكثر بالمشتغلين عليه، أو المختلفين إليه، أو نحو ذلك.

٢. دوام المراقبة لله تعالى في السر والعلانية، والمحافظة على خوفه في جميع حركاته وسكناته، والمحافظة على ما تعلمه، وما مُنِحَ من حواس وفهم، وأن يصون العلم من المذلة والإهانة، لأن الله تعالى جعل له العزة والشرف.

٣. وينبغي أن يكون سمحاً ببذل ما حصله من العلم، سهلاً بإلقائه إلى مبتغيه، متلطفاً إفادته طالبيه، مع رفق ونصيحة، وإرشاد إلى المهمات، وأن يكون زاهدا في الدنيا بما لا يضُرُ بنفسه، وبعياله، فإن ما يُحتاج إليه لذلك على الوجه المُعْتدل من القناعة، ليس يُعدُ من الدنيا.

٤. وينبغي ألَّا يتعظم على المتعلمين، بل يلين لهم ويتواضع، مع دوام السكينة والوقار والورع، فقد أُمِر بالتواضع لآحاد الناس، قال تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ الشعراء: ٢١٥.

٥. فكيف بهؤلاء الذين هم كأولاده، مع ما هم عليه من الملازمة لطلب العلم، ومع ما هم عليه من حق الصحبة وترددهم إليه، واعتمادهم عليه. وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: " لينوا لمن تُعلِمون، ولمن تتعلمون منه"([٢١٦]).

٦. أن يصون العلم كما صانه علماء السلف، ويقوم له بما جعله الله تعالى له من العزة والشرف، فلا يُذِلَّه بذهابه ومشيه إلى غير أهله من أبناء الدنيا، من غير ضرورة ولا حاجة، وأن يُعظّم شأنه ويرع قَدْرَهُ. قال الزهري: " هوان العلم أن يحمله العالم إلى بيت المتعلم ".

٧. ويجلس بوقار، وثيابه نظيفة، ولا يعتني بفاخر الثياب، ولا يقتصر على خُلُق ينسب صاحبه إلى قلة المروءة ويوقر فاضلهم بعلم، أو سن، أو شرف، أو صلاح ونحو ذلك. ويتلطف بالباقين، ويرفع مجلس الفضلاء، ويكرمهم ولا يجعل علمه سُلّماً يتوصل به إلى أغراض الدنيا.

٨. وينبغي أن يُنزه العالم نفسه عن دنيء المكاسب، ورذيلها طبعاً، ومكروهها عادة وشرعا، وألَّا يُعرَض نفسه للتهمة بفعل أو قول، فيُظنُ به السوء، فينفر الناس من الانتفاع بعلمه، وتسقط مكانته من قلوبهم.

٩. ويحافظ العالم على القيام بشعائر الإسلام، كإقامة الصلاة، وإفشاء السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن يحافظ على المندوبات الشرعية، القولية والفعلية، كتلاوة القرآن، والذكر، والنوافل، وأن يُعامل الناس معاملة حسنة، وأن يُطهّر باطنه وظاهره من الأخلاق السيئة، كالحسد والبغض، والغش والبخل، والطمع والغيبة والنميمة.

١٠. وينبغي للمعلم أن يأتي الدرس متطهراً نظيفاً في أحسن هيئة، ثم يُصلي ركعتين قبل خروجه من بيته، ويدعو الله أن يُعينه على أداء واجبه في إخلاص وأمانة.. .، ويجلس

([215])النووي: آداب العالم والمتعلم، ص ٢٩- ٤٣. وانظر ابن جماعة: تذكر السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، ص٧٥ – ١٠٨.

([216])الخطيب البغدادي: الفقيه والمتفقه، (٢ / ٢٢٩). وانظر التبيان في آداب حملة القرآن، (١ / ٤٠).

مستقبلاً إن أمكن بوقار وسكينة، وتواضع وخشوع، ولا يجلس رابعاً إحدى رجليه على الأخرى، ولا مادا رجليه أو أحدهما من غير عذر.

١١. وينبغي أن يكون شرحه للدرس مُبَسَّطاً، ومرتباً حتى يسهُل على الطلاب فهمه، ولا يُعلمه ما لم يتأهل له لأن ذلك يُشتت فهمه، ويُنَفّرُ قلبه ويضره ولا ينفعه. وعلى المعلم أن يبذُل الجُهد في تقريب المعنى له، وتبسيطه وتوضيحه، بذكر الأمثلة والأدلة، وأن يكون نقده لغيره من العلماء بدون تجريح ولا تنقيص.

١٢. وأن تكون المفاضلة في تعامله مع الطالب بكثرة الاجتهاد والتحصيل والأدب، لأن ذلك يبعث على التنافس والاقتداء، وأن لا يُقدِّم أحداً في نوبة الآخر، إلَّا في مصلحة، أو إذنٍ من صاحب النوبة. كما ينبغي عليه أن يتودد لحاضرهم، ويذكر بالخير غائبهم، وعليه أن يتعرف على أسمائهم، وأنسابهم، ومواطنهم، ويُكثر الدعاء لهم.

١٣. وأن يحرص على تفقد أحوال طلابه، والتأليف بين قلوبهم، ومساعدتهم مادياً ومعنوياً، وعليه أن يتواضع لطلابه، ولكل سائلٍ، ويلين لهم جانبه، ويخاطبهم بأحب الأسماء إليهم، ويُرحب بهم إذا لقيهم، وعند إقبالهم عليه ويُكرمهم إذا جلسوا إليه، ويؤنسهم بسؤاله عن أحوالهم، ويُعاملهم بطلاقة الوجه، وظهور البشر، وحُسْن المودة.

١٤. وينبغي أن يكون باذلاً وسعه في تفهيمهم، وتقريب الفائدة إلى أذهانهم، حريصاً على هدايتهم، ويُفْهِم كل واحد بحسب فهمه وحفظه، فلا يُعْطيه ما لا يحتمله، ولا يقصر به عما يحتمله بلا مشقة. ويخاطب كل واحد بحسب درجته، وبحسب فهمه وهمته. فيكتفي بالإشارة لمن يفهمها فهماً محققاً، ويوضح العبارة لغيره، ويكررها لمن لا يحفظها إلَّا بتكرار، ويذكر الأحكام موضحة بالأمثلة. ويكون تعليمه إياهم كل ذلك تدريجاً شيئا فشيئا. لتجتمع لهم مع طول الزمان جمل كثيرة. ويطالبهم في أوقات بإعادة محفوظاتهم.

ثانياً: من آداب المتعلم([٢١٧]):

١. ينبغي على طالب العلم أن يُطهر قلبه من الأدناس ليصْلُحَ لقبول العلم وحفظه واستثماره، ففي الصحيحين عن رسول الله ﷺ قال: " إنَّ في الجسد مضغة إذا صلُحت صلُح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"([٢١٨]) وقالوا تطييب القلب للعلم كتطيب الأرض للزراعة.

٢. وينبغي أن يقطع العلائق الشاغلة عن كمال الاجتهاد في التحصيل، ويرضى باليسير من القوت، ويصبر على ضيق العيش، قال الشافعي – رحمه الله -: لا يطلب أحدهم العلم بالملك وعز النفس فيفلح ولكن من طلبه بذل النفس، وضيق العيش، وخدمة العلماء أفلح، لا يُدرك العلم إلَّا بالصبر والذل.

٣. وينبغي له أن يتواضع للعلم والعالم، فبتواضعه يناله، وينقاد لمعلمه ويُشاوره في أموره، ويأتمر بأمره، كما ينقاد المريض لطبيب حاذق ناصح، ولا يأخذ العلم إلَّا ممن اكتملت أهليته، وظهرت ديانته، وتحققت معرفته واشتهرت صيانته وسيادته. فقد قال ابن سيرين، ومالك وخلائق من السلف: " هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم"([٢١٩]).

([217])النووي: آداب العالم والمتعلم، ص ٤٤- ٥٣.

([218])البخاري: صحيح البخاري، باب: فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم (٥٢)، (١ / ٢٠). وانظر النيسابوري: صحيح مسلم، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث رقم (١٠٧)، (٣/ ١٢١٩). حديث النعمان بن بشير ﷺ. ٥٣.

([219])ابن أبي شيبة: مصنف ابن أبي شيبة، باب: فيمن يؤخذ منه العلم، رقم: (٢٦٦٣٦)، (٥ / ٣٣٤) وانظر الالكائي: شرح اعتقاد أهل السنة، (٢٨ / ٤).

٤. ولا يكفي في أهلية التعليم أن يكون كثير العلم، بل ينبغي مع كثرة علمه بذلك الفن، كونه له معرفة في الجملة بغيره من الفنون الشرعية، فإنها مرتبطة. ويكون له دُرْبة، ودين، وخُلُق جميل، وذهنٌ صحيح، واطلاع تام.

٥. وينبغي أن يكون حريصاً على العلم، مواظباً عليه في جميع أوقاته، ولا يُذهب من أوقاته شيئا في غير العلم إلَّا بقدر الضرورة، لأكل ونوم قدرا لا بد منه ونحوهما، كاستراحة يسيرة لإزالة الملل، وشبه ذلك من الضروريات. وليس بعاقل من أمكنه درجة ورثة الأنبياء، ثم فوتها.

٦. وإذا جاء مجلس الشيخ فلم يجده انتظره، ولا يُفوّت درسه، إلَّا إذا خاف كراهية الشيخ لذلك، بأن يعلم من حاله الإقراء في وقت بعينه، فلا يشق عليه بطلب القراءة في غيره. وينبغي أن يغتنم التحصيل في وقت الفراغ وحال الشباب، وقوة البدن، ونباهة الخاطر، وقلة الشواغل.

٧. ولا يحسد أحداً، ولا يحتقره، ولا يعجب بفهمه، وينبغي أن يُرشد رفقته وغيرهم من الطلبة إلى مواطن الاشتغال والفائدة، ويذكر لهم ما استفاده على جهة النصيحة والمذاكرة، وبإرشادهم يبارك له في علمه ويستنير قلبه وتتأكد المسائل معه، مع جزيل ثواب الله – عز وجل – ومن بخل بذلك كان بضده فلا تثبت معه، وإن ثبت فلا يُثمر

٨. وأن يعتني بتحصيل الكتب شراءً واستعارةً، وأن يهتم بتصحيح خطه، ويبتدئ درسه بالحمد لله، والصلاة على رسول الله ﷺ، والدعاء للعلماء، ومشايخه، ووالديه، وسائر المسلمين، ويُبكّر بدرسه، لحديث: " اللهم بارك لأمتي في بُكورها.

المبحث الخامس: الإسهامات الفكرية لعلماء المسجد الحرام في عصر المماليك.

اشتهر علماء المسجد الحرام في عصر المماليك بإسهاماتهم الفكرية في مختلف فروع العلم كل على حسب اهتماماته وتخصصه، سواء كان ذلك في العلوم الدينية: كالتفسير، والقراءات، وعلم الحديث ومصطلحه، والمواريث والفقه وأصوله، وعلوم اللغة العربية: كالنحو، والصرف، والبلاغة، والشعر. وعلم الفلسفة: كالمنطق، والمناظرة.

كما كان لهم إسهامات فكرية في مجال العلوم الاجتماعية: كالتاريخ والجغرافيا والسير وأنساب العرب، والعلوم التطبيقية: كالطب والصيدلة، والحساب والجبر، والهندسة، والفلك، وغيرها من أنواع العلوم والمعارف، ومن مظاهر الإسهامات الفكرية عنايتهم في تلك الفترة بالتأليف والتصنيف، ولعل من أبرز أولئك العلماء:

- **العالم الموسوعي العز بن عبد السلام**([220]): أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن السُلَمي الشافعي (٥٧٧هـ – ٦٦٠هـ) الملقب بسلطان العلماء، عالم وقاضٍ، برع في الفقه والأصول والتفسير واللغة وبلغ رتبة الاجتهاد. قال عنه الحافظ الذهبي: بلغ رتبة الاجتهاد، وانتهت إليه رئاسة المذهب، مع الزهد والورع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصلابة في الدين، وقَصَدَه الطلبة من الآفاق، وتخرّج به أئمة، حج وجاور بالمسجد الحرام.

وقال عنه ابن العماد الحنبلي: عز الدين شيخ الإسلام الإمام العلامة، وحيد عصره، سلطان العلماء، برع في الفقه والأصول والعربية، وفاق الأقران والأضراب، وجمع بين فنون العلم من التفسير والحديث والفقه واختلاف الناس ومآخذهم، وبلغ رتبة الاجتهاد، ورحل إليه الطلبة من سائر البلاد، وصنف التصانيف المفيدة، ومن أشهرها:

١. تفسير العز بن عبد السلام: وهو مختصر تفسير النكت والعيون للماوردي
٢. الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، ويختصر أحياناً بمجاز القرآن
٣. أمالي عز الدين بن عبد السلام
٤. مختصر صحيح مسلم
٥. بداية السول في تفضيل الرسول
٦. قصة وفاة النبي ﷺ
٧. ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام
٨. رسالة في علم التوحيد
٩. الملحة في اعتقاد أهل الحق، وتسمى: رسالة في العقيدة، أو الاعتقاد.
١٠. الفرق بين الإسلام والإيمان
١١. نبذة مفيدة في الرد على القائل بخلق القرآن
١٢. وصية الشيخ عز الدين بن عبد السلام إلى ربه الملك العلام
١٣. أحوال الناس يوم القيامة وذكر الخاسرين والرابحين منهم
١٤. الغاية في اختصار النهاية

([220])**الزحيلي: محمد، العز بن عبد السلام: سلطان العلماء وبائع الملوك. وانظر الوهيبي: عبد الله بن إبراهيم، العز بن عبد السلام: حياته وآثاره ومنهجه في التفسير.**

١٥. الجمع بين الحاوي والنهاية
١٦. أحكام الجهاد وفضائله
١٧. قواعد الأحكام
١٨. مقاصد الصلاة
١٩. مقاصد الصوم
٢٠. مناسك الحج
٢١. صلاة الرغائب
٢٢. الفتاوى الموصلية :ويقال عنها: "فتاوى العز بن عبد السلام
٢٣. الفتاوى المصرية: دَوَّنها حسب ترتيب الأبواب الفقهية
٢٤. قواعد الأحكام في مصالح الأنام، أو القواعد الكبرى
٢٥. القواعد الصغرى :وهو مختصر الكتاب السابق
٢٦. الإمام في بيان أدلة الأحكام
٢٧. شرح "منتهى السؤال والأمل في عِلْمي الأصول والجدل "لابن الحاجب
٢٨. شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال
٢٩. مقاصد الرعاية لحقوق الله: مختصر رعاية المُحاسبي
٣٠. مسائل الطريقة في علم الحقيقة :واشتهرت بالستين مسألة؛ تضمن ستين سؤالاً في الأخلاق والتصوف والإيمان
٣١. رسالة في القطب والأبدال الأربعين: بيّن فيها بطلان قول الناس فيهم، وعدم وجودهم كما زعموا
٣٢. الفتن والبلايا والمحن والرزايا، أو فوائد البلوى والمِحَن
٣٣. نهاية الرغبة في أدب الصحبة

- **أمير المؤمنين في علم الحديث ابن حجر العسقلاني**([٢٢١]): شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد بن أحمد بن الكناني العسقلاني ثم المصري الشافعي، الكناني العسقلاني الشافعي (٧٧٣ هـ - ٨٥٢ هـ).

قال عنه السخاوي: شهد له شيخه العراقي بأنه أعلم أصحابه بالحديث. وقال السيوطي: إمام هذا الفن للمقتدين، ومقدم عساكر المحدثين، وعمدة الوجود في التوهية والتصحيح، وأعظم الشهود والحكام في بابي التعديل والتجريح، وقال العكبري: انتهى إليه معرفة الرجال واستحضارهم ومعرفة العالي والنازل وعلل الأحاديث وغير ذلك وصار هو المعول عليه في هذا الشأن في سائر الأقطار.

وقد صنف ابن حجر مؤلفات وتصانيف كثيرة زادت على مئة وخمسين مصنفاً في مجموعة من أشهرها وأهمها:

([221])السيوطي: ذيل طبقات الحفاظ، الطبقة الخامسة والعشرون. وانظر خير الدين الزركلي: الأعلام.

١. فتح الباري شرح صحيح البخاري (خمسة عشر مجلداً)، مكث في تأليفه عشرين سنة.
٢. الإصابة في تمييز الصحابة، وهو كتاب تراجم ترجم فيه ابن حجر للصحابة
٣. تهذيب التهذيب، ومختصره كتاب تقريب التهذيب.
٤. المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، ذكر فيه أحاديث لم يخرجها أصحاب المسانيد الثمانية.
٥. الدراية في منتخب تخريج أحاديث الهداية.
٦. إنباء الغمر بأنباء العمر: وهو مؤلف ضخم يقع في حوالي ألف صفحة كبيرة حيث يتبع نظام الحوليات والشهور والأيام في تدوين الحوادث. ثم يتبع حوادث كل سنة بأعيان الوفيات. وقد أفاض في ذكر ما يتعلق بمصر من هذه الحوادث، وهو يتناول الأحداث التي وقعت بين سنة (٧٧٣ هـ - ٨٥٠ هـ)
٧. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: هو معجم ضمنه تراجم أعيان القرن الثامن الهجري من علماء وملوك وسلاطين وشعراء وغيرهم من مصر ومختلف بلاد الإسلام، ويعتبر هذا الكتاب من أهم مصادر تاريخ مصر الإسلامية في الفترة التي يتناولها
٨. رفع الإصر عن قضاة مصر: وهو معجم لقضاة مصر منذ الفتح الإسلامي حتى آخر القرن الثامن الهجري.
٩. تسديد القوس مختصر مسند الفردوس
١٠. بلوغ المرام من أدلة الأحكام
١١. لسان الميزان.
١٢. تغليق التعليق في وصل معلقات البخاري
١٣. ديوان ابن حجر، في الشعر
١٤. غبطة الناظر في ترجمة الشيخ عبد القادر
١٥. القول المسدد في الذب عن المسند
١٦. بذل الماعون في فضل الطاعون
١٧. إتحاف المهرة بالفوائد المبتكرة من أطراف العشرة
١٨. التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير
١٩. الأربعون في ردع المجرم عن سب المسلم
٢٠. هدي الساري مقدمة فتح الباري
٢١. النكت على كتاب ابن الصلاح
٢٢. تقريب التهذيب
٢٣. طبقات المدلسين
٢٤. نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر
٢٥. تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة

٢٦. العجاب في بيان الأسباب
٢٧. تبصير المنتبه بتحرير المشتبه
٢٨. الأمالي المطلقة
٢٩. الإمتاع بالأربعين المتباينة السماع
٣٠. الأمالي الحلبية
٣١. الزهر النضر في حال الخضر
٣٢. نزهة الألباب في الألقاب
٣٣. الإيثار بمعرفة رواة الآثار
٣٤. الوقوف على الموقوف
٣٥. نزهة السامعين في رواية الصحابة عن التابعين
٣٦. سلسلة الذهب
٣٧. الأمالي السفرية الحلبية
٣٨. المعجم المفهرس: تجريد أسانيد الكتب المشهورة والأجزاء المنثورة
٣٩. الكلام على حديث امرأتي لا ترد يد لامس
٤٠. المنتخب من أمالي ابن حجر من تخريج مختصر ابن الحاجب
٤١. لسان الميزان
٤٢. إطراف المسند المعتلي بأطراف المسند الحنبلي
٤٣. نظم اللآلي بالمائة العوالي
٤٤. انتقاض الاعتراض في الرد على العيني في شرح البخاري
٤٥. موافقة الخبر الخبر في تخريج أحاديث المختصر
٤٦. الأحاديث العشرة العشارية الاختيارية لابن حجر
٤٧. عوالي مسلم
٤٨. أمالي الأذكار في فضل صلاة التسبيح

- **الإمام النووي**([٢٢٢]): أبو زكريا يحيى بن شرف الحزامي النووي الشافعي المشهور بالنووي (٦٣١هـ – ٦٧٦هـ) مُحدّث وفقيه ولغوي اشتهر بكتبه وتصانيفه العديدة في الفقه والحديث واللغة والتراجم، يوصف بأنه محرّر المذهب الشافعي ومهذّبه ومنقحة ومرتبه، حيث استقر العمل بين فقهاء الشافعية على ما يرجحه النووي، تعلم القرآن الكريم وحفظه، حتى ختم القرآن وقد قارب البلوغ، ومكث في بلده نوى حتى بلغ الثامنة عشر من عمره، ثم ارتحل إلى دمشق. فلازم مفتي الشام عبد الرحمن بن إبراهيم الفزاري وتعلم منه، وبقي النووي في دمشق نحواً من ثمان وعشرين سنة ، أمضاها كلها في بيت صغير في

([222])**السيوطي: المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي. وانظر محمود حمدان: الإمام النووي وأثره في الفقه الإسلامي.**

المدرسة الرواحية، يتعلّم ويُعلّم ويُؤلف الكتب، وتولى رئاسة دار الحديث الأشرفية، وبعد نحو سنتين من قدوم النووي إلى دمشق، صحبه أبوه إلى الحج، وقال السخاوي وغيره إنه حج مرتين جاور بالمسجد الحرام.

أثنى كثير من العلماء والفقهاء والمحدثين والزاهدين على الإمام النووي، فقد وصفه ابن العطار بقوله: " شيخي وقدوتي الإمام ذو التصانيف المفيدة والمؤلفات الحميدة، أوحد دهره وفريد عصره، الصوّام القوّام، الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، صاحب الأخلاق الرضية والمحاسن السنية، العالم الرباني المتفق على علمه وإمامته، وجلالته وزهده، وورعه وعبادته، وصيانته في أقواله وأفعاله وحالاته، له الكرامات الطافحة، والمكرمات الواضحة، والمؤثر بنفسه وماله للمسلمين، والعالم بحقوقهم وحقوق ولاة أمورهم بالنصح والدعاء في العالمين، مع ما هو عليه من المجاهدة لنفسه، قد صرف أوقاته كلها في أنواع العلم والعمل، فبعضها للتصنيف، وبعضها للتعليم، وبعضها للصلاة، وبعضها للتلاوة والتدبر، وبعضها للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ". وقد صنف النووي التصانيف النافعة، ومن أشهر مؤلفاته:

١. المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج.
٢. روضة الطالبين وعمدة المفتين
٣. منهاج الطالبين وعمدة المفتين
٤. رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين
٥. الأذكار المنتخب من كلام سيد الأبرار
٦. التبيان في آداب حملة القرآن
٧. التحرير في ألفاظ التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي
٨. العمدة في تصحيح التنبيه
٩. الإيضاح في المناسك
١٠. إرشاد طلاب الحقائق إلى معرفة سنن خير الخلائق
١١. التقريب والتيسير في معرفة سنن البشير النذير
١٢. الأربعون النووية
١٣. بستان العارفين: في الرقائق
١٤. مناقب الشافعي
١٥. مختصر أسد الغابة
١٦. الفتاوى أو المسائل المنثورة
١٧. أدب المفتي والمستفتي
١٨. مسائل تخميس الغنائم
١٩. مختصر التذنيب للرافعي
٢٠. دقائق الروضة
٢١. دقائق المنهاج

٢٢. تحفة طلاب الفضائل

٢٣. الترخيص في الإكرام والقيام

٢٤. مختصر آداب الاستسقاء.

٢٥. رؤوس المسائل.

وللإمام النووي – رحمه الله – مجموعة أخرى من المؤلفات لم يتمها، ومنها:

١. المجموع شرح المهذب لأبي إسحاق الشيرازي

٢. تهذيب الأسماء واللغات

٣. قطعة من شرح الوسيط لأبي حامد الغزالي

٤. قطعة من شرح صحيح البخاري

٥. قطعة يسيرة من شرح سنن أبي داود

٦. قطعة في الإملاء على حديث الأعمال بالنيات

٧. كتاب الأمالي

٨. الخلاصة في أحاديث الأحكام

٩. مسوّدة من طبقات الفقهاء، بيّضه الحافظ المزي

١٠. التحقيق، وصل فيه إلى باب صلاة المسافر

١١. تحفة الطالب النبيه

١٢. جامع السنة

١٣. مهمات الأحكام

١٤. الأصول والضوابط

- **الطبيب ابن النفيس**([٢٢٣])**:** أبو الحسن علاء الدين علي بن أبي الحزم الخالدي المخزومي القَرشي الدمشقي الملقب بابن النفيس (٦٠٧هـ – ٦٨٧هـ) عالم موسوعي وطبيب له إسهامات كثيرة في الطب، ويعتبر مكتشف الدورة الدموية الصغرى، وأحد رواد علم وظائف الأعضاء في الإنسان، حيث وضع نظريات يعتمد عليها العلماء إلى الآن.

عين رئيسًا لأطباء مصر، ويعتبره كثيرون أعظم فيزيولوجييّ العصور الوسطى ظل الغرب يعتمدون على نظريته حول الدورة الدموية، حتى اكتشف ويليام هارفي الدورة الدموية الكبرى. له العديد من المؤلفات في الطب من أهمها:

١. الشامل في الصناعة الطبية: أضخم موسوعة طبية كتبها شخص واحد في التاريخ الإنساني، قد وضع مسودتها بحيث تقع في ثلاثمائة مجلد بيّض منها ثمانين. وتمثل هذه الموسوعة الصياغة النهائية والمكتملة للطب والصيدلة في الحضارة العربية الإسلامية في العصور الوسطى

([223])**بركات: محمد، <u>ابن النفيس واتجاهات الطبيب العربي.</u>**

٢. شرح تشريح القانون: جمع فيه أجزاء التشريح المتفرقة في كتاب القانون لابن سينا وشرحها، وفيه وصف الدورة الدموية الصغرى، وهو الذي بيّن أن ابن النفيس قد سبق علماء الطب إلى معرفة هذا الموضوع من الفيزيولوجيا

٣. شرح فصول أبقراط: موجود في مكتبات برلين وجوته واكسفورد وباريس، وتوجد نسخة في آيا صوفيا بتاريخ ٦٧٨هـ وقد طبع في إيران سنة١٢٩٨هـ

٤. المهذب في الكحل: موجود في مكتبة الفاتيكان، وهو كتاب موسوعي في الطب

٥. كتاب موجز القانون أو الموجز في الطب: تناول كل أجزاء القانون، فيما عدا التشريح ووظائف الأعضاء

٦. المختار في الأغذية: موجود في مكتبة برلين

٧. بغية الطالبين وحجة المتطببين

٨. بغية الفطن من علم البدن

٩. شرح كتاب الأوبئة لأبقراط

١٠. شرح مسائل حنين بن إسحاق

١١. شرح مفردات القانون

١٢. تفسير العلل وأسباب الأمراض

١٣. شرح الهداية في الطب

كما أن لابن النفيس مؤلفات في اللغة والدين والفلسفة والمنطق منها:

١. طريق الفصاحة

٢. شرح كتاب التنبيه لأبي اسحق إبراهيم الشيرازي (فقه شافعي)

٣. شرح الإشارات لابن سينا (كتاب في المنطق)

٤. شرح الهداية لابن سينا (في المنطق)

٥. الرسالة الكاملية (في السيرة النبوية)

٦. مختصر في علم أصول الحديث

٧. شرح كتاب الشفاء لابن سينا، وهو كتاب شمل المنطق والطبيعة والفلك والحساب والعلوم الإلهية

٨. فاضل بن ناطق، وهو كتاب صغير عارض فيه رسالة حي بن يقظان (في علم الكلام)

- **السياسي الأديب لسان الدين بن الخطيب**([٢٢٤]): أبو محمد بن عبد الله بن سعيد السّلماني الخطيب شاعر وكاتب وفقيه مالكي ومؤرخ وفيلسوف وطبيب وسياسي من الأندلس (٧١٣هـ – ٧٧٦هـ) درس الأدب والطب والفلسفة وقضّى معظم حياته في غرناطة في خدمة بلاط بني نصر وعرف بذي الوزارتين: الأدب والسيف. نُقِشت أشعاره على حوائط قصر الحمراء بغرناطة.

([224])**المقري: نفح الطِيب من غُصن الأندلس الرّطيب، (٣١٢ / ٦). وانظر الشكعة: مصطفى، منهاج التأليف عند العلماء العرب.**

نشأ لسان الدين في أسرة عرفت بالعلم والفضل والجاه، وكان جده الثالث (سعيد) يجلس للعلم والوعظ فعرف بالخطيب، وتأدّب في غرناطة على شيوخها، فأخذ عنهم القرآن، والفقه، والتفسير، واللغة، والرواية، والطب ترك ابن الخطيب آثاراً متعددة تناول فيها الأدب، والتاريخ، والجغرافيا، والرحلات، والشريعة، والأخلاق، والسياسة والطب، والموسيقى، والنبات، والفلسفة. وقد ضاع كثير من مؤلفاته، لاسيما ما ألفه في التصوف والموسيقى والفلسفة، ويبدو أنه أحرق فيما احرق بغرناطة سنة ٧٧٣هـ في حادثة رمية بالإلحاد والزندقة من قبل أعدائه وحاسديه، وبلغت مؤلفاته حوالي (٦٠) مؤلف، بين مطبوع، ومخطوط، ومفقود، من أشهر مؤلفاته:

١. الإحاطة في أخبار غرناطة
٢. اللمحة البدرية في الدولة النصرية
٣. إعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام
٤. أوصاف الناس في التواريخ والصلات
٥. كناسة الدكان بعد انتقال السكان
٦. معاير الاختيار في معاهد الاعتبار
٧. مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس
٨. مفاخرات مالقة وسلا
٩. تحفة الكتاب ونجعة المنتاب، (ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب)
١٠. السحر والشعر
١١. روضة التعريف بالحب الشريف
١٢. رسالة في السياسة

- **عالم الاجتماع ابن خلدون**: عبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي ولد في تونس وشب فيها (٧٣٢هـ – ٨٠٨هـ) وليَ الكتابة والوساطة بين الملوك في بلاد المغرب والأندلس، ثم انتقل إلى مصر حيث قلده السلطان برقوق قضاء المالكية، ثم استقال من منصبه وانقطع إلى التدريس والتصنيف فكانت مصنفاته من أهم المصادر للفكر العالمي من أشهرها كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في معرفة أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر المعروف بتاريخ ابن خلدون، ومن أشهر مؤلفاته:

١. مقدمة ابن خلدون
٢. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في معرفة أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر المعروف بتاريخ ابن خلدون
٣. لباب المحصل في أصول الدين
٤. شفاء السائل لتهذيب المسائل
٥. التعريف بابن خلدون ورحلاته شرقا وغربا (مذكراته)

- **مؤرخ الإسلام الإمام الذهبي:** أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الدمشقي (٦٧٣هـ - ٧٤٨هـ) محدث وإمام حافظ، جمع بين ميزتين لم يجتمعا إلا للأفذاذ القلائل في تاريخنا، فهو يجمع إلى جانب الإحاطة الواسعة بالتاريخ الإسلامي حوادث ورجالاً، جمع

أيضاً المعرفة الواسعة بقواعد الجرح والتعديل للرجال فكان وحده مدرسة قائمة بذاتها في علم التاريخ.

والإمام الذهبي من العلماء الذين دخلوا ميدان التاريخ من باب الحديث النبوي وعلومه، وظهر ذلك في عنايته الفائقة بالتراجم التي صارت أساساً كثيراً من كتبه ومحور تفكيره التاريخي، وقيل: سُمي الإمام الذهبي بالذهبي، لأنه كان يزن الرجال كما يزن الجوهرجي الذهب، سمع بدمشق، ومصر، وبعلبك، والإسكندرية.

وسمع منه الجمع الكثير، وكان شديد الميل إلى رأي الحنابلة، وله تصانيف في الحديث، وأسماء الرجال؛ قرأ القرآن وأقرأه بالروايات. وكان للإمام الذهبي – رحمه الله – جهود تربوية، فبعد أن أنهى رحلاته في طلب العلم والأخذ عما يزيد عن الألف من العلماء، اتجه إلى التدريس وعقد حلقات العلم لتلاميذه، وانغمس في التأليف والتصنيف، وبدأت حياته العلمية بغوطة دمشق حيث تولى الخطابة في مسجدها وألف الإمام خيرة كتبه. وتعد الفترة التي قضاها بها هي أخصب فترات حياته إنتاجًا، ثم تولى مشيخة دار الحديث.

درس عليه عدد كبير من طلبة العلم، ووفد عليه لتلقي العلم كثيرون من أنحاء العالم الإسلامي بعد أن اتسعت شهرته وانتشرت مؤلفاته، ورسخت مكانته لمعرفته الواسعة بالحديث وعلومه والتاريخ وفنونه، فكان مدرسة قائمة بذاتها تخرج فيها كبار الحفاظ والمحدثين، وقد بلغت مؤلفاته التاريخية وحدها نحو مائتي كتاب، بعضها مجلدات ضخمة، ومن أشهر مؤلفات الإمام شمس الدين الذهبي:

١. تاريخ الإسلام
٢. سير أعلام النبلاء
٣. معجم الشيوخ الكبير
٤. تذكرة الحفاظ (طبقات الحفاظ)
٥. ميزان الاعتدال
٦. الرواة الثقات المتكلم فيهم بما لا يوجب ردهم
٧. المغني في الضعفاء
٨. المعين في طبقات المحدثين
٩. تلخيص كتاب الموضوعات
١٠. زغل العلم
١١. المنتقى من منهاج الاعتدال
١٢. ثلاث تراجم نفيسة للأئمة الأعلام
١٣. المقتنى في سرد الكنى
١٤. الموقظة في علم مصطلح الحديث
١٥. معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار
١٦. الرد على ابن القطان في كتابه بيان الوهم والإيهام
١٧. المعجم المختص بالمحدثين

١٨.مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه
١٩.من تكلم فيه وهو موثوق
٢٠.العبر في خبر من غبر
٢١.ذكر من يعتمد قوله في الجرح والتعديل
٢٢.ترجمة الإمام مسلم ورواة صحيحه
٢٣.المعجم اللطيف
٢٤.المقدمة الزهرا في إيضاح الإمامة الكبرى
٢٥.ديوان الضعفاء

النتائج والتوصيات

أولاً: النتائج

أحْسَبُ أنَّ هذا البحث ما هو إلَّا لبنة من لبنات البحث العلمي، جاء لُبْرِزَ الجهود التربوية لعلماء المسجد الحرام في عصر المماليك، وأحسب أني بذلت الجُهْدَ والوِسْعَ، من خلال دراسة المصادر التأريخية التي تناولت الحركة العلمية للعلماء في تلك الفترة، في ضوء الأوضاع الدينية، والسياسية، والاقتصادية، في عصر المماليك.

وفي ضوء ما تقدم يمكن استخلاص مجموعة من النتائج للجهود التربوية لعلماء المسجد الحرام في عصر المماليك والتي تتمثل في النتائج التالية:

١. مكانة المسجد الحرام في نفوس المسلمين، وتعلق قلوب العلماء على مر العصور بمجاورة مكة المكرمة والعيش فيها، وأن المسجد الحرام تَحِنُ إليه النفوس، وتشتاق إليه أفئدة المسلمين، وتهوي أليه من كل فج عميق استجابة لنداء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام. وأن مكة أحب البقاع إلى الله الذي اختاره سبحانه وتعالى، واختصها واصطفاها على سائر بلاد العالمين. وأن مكة يُجْبي إليها ثمرات كل شيء، فكل خيرات الأرض يُؤتى إليها، ومما امتن الله على مكة وأهلها من الخيرات والثمرات عقول العلماء، فشيء هنا نكرة، وهي في سياق العموم، فيكون قُدُوم العلماء، وطلاب العلم وصفوة العُباد والزُهاد إلى مكة في تلك الفترة، من الثمرات التي أُجْبيت لمكة المكرمة.

٢. تنافس الملوك والسلاطين والأمراء عبر مر العصور، وتعاقب الأزمان، على عمارة بيت الله الحرام، وخدمة أهلها والمجاورين بها، وخدمة ضيوف الرحمن من الحجاج والمعتمرين والزوار، له أسباب دينية تتمثل في مكانة المسجد الحرام لكل مسلم، ولهذا كان هؤلاء الملوك والسلاطين والأمراء يتشرفون بخدمة بيت الله الحرام. كما أن خدمة المسجد الحرام له أسباب سياسية أيضاً، فالمماليك كانوا عبيداً وأرقاء فترة حروب التتار والمغول لأراضي المسلمين، ثم ما لبثوا أن أصبحوا قادة وأمراء وسلاطين يحكمون البلاد والعباد، ولهذا كانوا أشد حرصاً على إيجاد مراكز قوة تدعم سلطانهم، وتثبت دعائم ملكهم، ولهذا كانوا حريصين على أن يُدْعى لهم في منبر الحرمين الشريفين في الجمعة، والأعياد والمناسبات الدينية لإضفاء الصبغة الشرعية على حكمهم لبلاد المسلمين.

٣. ازدهار الحياة الاقتصادية في مكة المكرمة في عصر المماليك، حيث حرص السلاطين والملوك والأثرياء في إرسال الأموال والصدقات، وأوقفوا الأوقاف على المدارس والأربطة، واعتنوا بعمارة المسجد الحرام، وتأمين طريق قوافل الحجاج والتجار، وحارب السلاطين

والأمراء الشُطار وقطاع الطريق، والقبائل التي كانت تنهب الأموال، وتروع الآمنين، وقام سلاطين المماليك برفع المُكُوس والضرائب التي كان يفرضها أشراف مكة وحُكامها على الحجاج والتُجار مما كان سبباً في ازدهار الحياة الاقتصادية في مكة، وامتلاء الأسواق حول المسجد الحرام بكل أصناف البضائع من البُر إلى الدُر

٤. محاولة بعض المستشرقين تشويه التأريخ الإسلامي، وإظهار أن دولة المماليك (٦٤٨هـ – ٩٢٣هـ) كانت عصر تخلف وانحطاط فكري وعلمي في بلاد المسلمين، وأن سلاطين المماليك وأمراءهم انشغلوا بالحروب الصليبية وحروبهم مع التتار والمغول عن العلم والمعرفة، وهذا التصور مخالف للواقع الذي كانت عليه بلاد المسلمين.

فقد سجل علماء المسلمين أروع النماذج الإيجابية في مجال التقدم العلمي، والنهضة الفكرية، والأدبية في مختلف فنون العلم والمعرفة والإبداع الفكري والثقافي، وأثروا المكتبة العالمية قبل المكتبة الإسلامية بآلاف المجلدات العلمية وكان عصر المماليك امتدادا لعصور النهضة والنور والحياة في التأريخ الإسلامي.

٥. كان المسجد الحرام أكبر جامعة علمية في تلك الفترة، وكانت الحركة العلمية للعلماء وطلبة العلم لا يمكن مقارنتها مع أي حركة علمية في جمع أنحاء العالم الإسلامي شرقاً وغرباً، وذلك لوجود أعظم علماء المسلمين من مختلف أقطار المسلمين، مما أوجد ظاهرة علمية لا توجد إلَّا في المسجد الحرام، وهي ظاهرة وجود الأسر العلمية التي امتد علماؤها لأكثر من ستة قرون في تاريخ الإسلام، ونبوغ أبناء تلك الأُسر في مختلف فنون العلم، والمعرفة.

٦. عناية علماء المسجد الحرام في عصر المماليك بتعليم النساء، حيث شهد تعْلِمهن نشاطاً ملحوظاً وتنافس النساء في طلب العلم، خاصةً العلوم المتعلقة بالشريعة الإسلامية: كعلم الحديث، والفقه، واللغة، والسيرة. وظهر في تلك الفترة عالمات مكيات يُشد إليهنَّ الرحال لطلب العلم، وأخذ الإجازة في بعض العلوم منهن. ونبغ منهنَّ عالمات بارعات مكّنهنَّ علمهنَّ من التدريس داخل المسجد الحرام. كما كان للمرأة المكية مشاركة فاعلة في الحياة الاجتماعية، من خلال المشاركة في بناء المدارس، والأربطة وإطعام الفقراء والمساكين، والتصدق عليهم، وحفر الآبار، وإسبال السبيل لسقيا أهل مكة والحجاج وغيرهم.

٧. ظهور طبقة من المجاورين الذين قدموا إلى المسجد الحرام بقصد طلب العلم، والتعبد لله تعالى في أفضل بقاع الدنيا، وإسهام هذه الطبقة من المجاورين في نشر العلوم الشرعية والأدبية والعلمية، في بلاد المسلمين، ونبوغ علماء من المجاورين أسهموا إلى وقتنا المعاصر في الجهود التربوية والعلمية، بسبب ما تركوه من إرثٍ حضاري، يتمثل في مصنفاتهم ومؤلفاتهم في مختلف فروع العلم والمعرفة.

٨. الاهتمام ببناء المدارس حول المسجد الحرام، وتزويدها بأبرز علماء المسجد الحرام من أهل مكة، أو العلماء المجاورين لبيت الله الحرام، في تلك الفترة كان سبباً في ظهور التنافس العلمي بينهم.

وظهور المدارس الفقهية، والفكرية بتعددها وتنوعها، يشهد لهذا النشاط العلمي وجود المقامات الفقهية الأربعة وهي: مقام المذهب الشافعي، والحنفي، والمالكي والحنبلي، وظهور بعض الفرق والمذاهب الفكرية، كالصوفية والزيدية، والأشاعرة وغيرهم من المذاهب والفرق التي تنتسب للإسلام.

٩. إنشاء وبناء الأربطة، وإيقاف الأوقاف عليها، لتكون سكناً للطلاب والعلماء، والمجاورين من طلبة العلم والفقراء والمساكين، والمنقطعين من الحجاج والمعتمرين، وتزويد هذه الأربطة

بكل وسائل الراحة، والحياة الكريمة من آبار ومياه للشرب والوضوء، وخلوات للبحث والمطالعة، وتزويدها بالكتب النفيسة، وخزائن المكتبات.

١٠. تعدد وتنوع وسائط التعليم في المسجد الحرام في عصر المماليك لتشمل التعليم في: الكتاتيب، والمسجد الحرام، ومنازل وبيوت الأمراء والوجهاء والعلماء، والأربطة، والمدارس، هذا التنوع والتعدد في وسائط التعليم أوجد حراكاً تربوياً وتعليمياً لجميع طبقات المجتمع المكي من الرجال والنساء، ومن الأغنياء والفقراء، ومن المقيمين بمكة المكرمة أو المجاورين لها، فكان المجتمع المكي عاصمة للعلم والثقافة والمعرفة في تلك الفترة.

١١. بروز التعصب المذهبي في تلك الفترة بين السلاطين والأمراء من جهة بين العلماء وطلبة العلم من جهة أخرى، حيث كان سلاطين المماليك يتعصبون إلى مذهب الإمام الشافعي، بينما كان أشراف مكة وأُمراؤُها الذين كانوا على مذهب الزيدية الذي كان يتعصب إليه ملوك دولة بني رسول باليمن.

كما كان توريث المناصب الدينية في المسجد الحرام مظهراً آخر من مظاهر التعصب بين العلماء في مكة حيث ظهر توريث منصب الإمامة، والخطابة، والقضاء، مما اضطر معه السلاطين أن يولوا بعض المناصب الدينية لأكثر من عالم من العلماء، وتعين أربعة قضاة، وأئمة، ومفتين حسب المذاهب الأربعة التي كانت موجودة في المسجد الحرام مما كان سبباً في ظهور بعض الصراعات بين أتباع المذاهب الأربعة في مكة المكرمة.

١٢. حصر التدريس في المدارس والأربطة على مذهب معين دون غيره من المذاهب الأربعة، وكذلك الاقتصار على تدريس كُتُب المذهب، ولا يُسمح بتدريس كُتُب الفقه الأخرى إلَّا ما ندر في بعض مدارس بعض السلاطين والأمراء، مثل: المدرسة البنغالية، ومدرسة قايتباي، وحصر سكن بعض الأربطة على طلبة العلم والمجاورين من مذهب معين.

١٣. ومن المظاهر السلبية التي كانت موجودة في مكة المكرمة انتشار بعض المخالفات والبدع التي كان في مكة المكرمة، بسبب انفتاح مكة لجميع الأجناس والأعراق من مختلف أقطار العالم الإسلامي، القادمين للحج والعمرة والتجارة، فيمكثون فترة من الزمان يمارسون تلك العادات والمظاهر الدينية التي ليس لها أصلٌ في الدين، مثل: بدعة العروة الوثقى، وبدعة أخرى تُسمى سُرْة الدنيا، والاحتفال باستهلال الشهور الهجرية، وليالي الوفود، وليلة أول رجب وليلة النصف من رجب، والسابع والعشرين منه، والاحتفال بليلة النصف من شعبان، وغيرها من الاحتفالات التي كان يُنْكرها علماء المسجد الحرام في تلك الفترة.

١٤. من أعظم الجهود التربوية لعلماء المسجد الحرام في عصر المماليك، بُروُز ظاهرة التأليف والتصنيف بين العلماء حيث اعتنى العلماء بهذا الجانب المُشرق، فبسبب نشاط الحركة العلمية في مكة، ظهر نوابغ من العلماء وتفرغوا للتصنيف والتأليف في مختلف العلوم والمعارف.

حتى بلغ مصنفات بعض من أولئك الأعلام المئات من الكُتب، منهم: أمير المؤمنين في الحديث ابن حجر العسقلاني، الذي بلغت مصنفاته أكثر من مائة وخمسين مصنفاً في مختلف العلوم والمعارف والفنون، وشيخ الإسلام ابن تيمية الحراني إمام عصره، وعالم زمانه، وتلميذه الإمام ابن القيم، وأبو زكريا يحيى بن شرف النووي، وأبو بكر عبد الرحمن بن كمال الدين السيوطي، الذي قيل أن له أكثر من خمسمائة مصنف، وشمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي، وأبو الحسن علاء الدين ابن النفيس، والنجم ابن فهد، وغيرهم من العلماء.

ثانياً: التوصيات

أما توصيات البحث فيمكن إجمالها في التوصيات التالية:

١. إبراز الدور الحضاري للمسجد الحرام، ويمكن تحقيق ذلك من خلال قيام المملكة العربية السعودية ممثلة في الرئاسة العامة لشئون الحرمين الشريفين، وتفعيل جهود علماء المسجد الحرام، ودورهم الحضاري والتربوي من خلال منبر الجمعة، ومواسم الحج، والدروس العلمية في المسجد الحرام. وإنشاء جامعة المسجد الحرام بمكة المكرمة، وجامعة المسجد النبوي بالمدينة، للاهتمام بتعليم العلوم الشرعية المختلفة، وعلوم اللغة والأدب، يقوم بالتدريس فيها نُخبة من علماء ومفكري العالم الإسلامي.

٢. استثمار مواسم الحج والعمرة، في إقامة الندوات، والمؤتمرات، واللقاءات العلمية والفكرية، ومناقشة قضايا المسلمين في مجال التربية والتعليم، والتواصل مع مراكز البحث العلمي في مختلف دول العالم الإسلامي لمتابعة كل ما هو جديد في الجانب التربوي، وابراز القدوات والنماذج الإبداعية لعلماء المسلمين.

٣. تفعيل دور مركز إحياء التراث الإسلامي، ومركز أبحاث الحج بجامعة أم القرى لتقديم مزيد من الجهود والدراسات العلمية، والتربوية عن تاريخ المسجد الحرام في مختلف التخصصات التاريخية، والتربوية، والاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية.

٤. إقامة مسابقة الحرمين الشريفين، بحيث تكون مسابقة علمية تربوية عالمية، يتنافس فيها الباحثون من مختلف دول العالم الإسلامي، لتقديم الدراسات والأبحاث التي تُعْنى بالمسجد الحرام قديماً وحديثاً.

٥. توجيه طلبة الدراسات العليا في أقسام أصول التربية، والتربية الإسلامية إلى تقديم أطروحات علمية تُعْنى بدراسة تأريخ التربية الإسلامية، وجهود العلماء عبر العصور الإسلامية، وتقديم صورة مشرقة عن مكانة العلم والعلماء في الدين الإسلامي الحنيف.

٦. دعم المراكز البحثية في العالم الإسلامي، والمختصين من العلماء في مجال التربية الإسلامية إلى العناية بتحقيق التراث الإسلامي لعلماء الأمة الإسلامية عبر مختلف العصور، وتشجيع حركة تحقيق، ونشر التراث الإسلامي، وإبراز جهود مراكز تحقيق التراث.

قائمة المصادر والمراجع

١. ابن أبي شيبة: أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان العبسي، مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد ن الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ه.

٢. ابن الحجاج: أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي المدخل، مكتبة دار التراث، القاهرة.

٣. ابن العماد: أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العَكري الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب تحقيق: محمود وعبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

٤. ابن المجاور: جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب الشيباني الدمشقي، تاريخ المستبصر، (د. ت)

٥. ابن إياس: محمد بن أحمد الحنفي بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٤ه / ١٩٨٤.

٦. ابن بطوطة: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم الطنجي، رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، اعتنى به وراجعه: درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت ١٤٣٦ه / ٢٠١٥م.

٧. ابن تغري بردي: أبو المحاسن يوسف بن جمال الدين، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة، مصر، ١٣٨٣ه / ١٩٦٣م.

٨. ابن تغري بردي: أبو المحاسن يوسف بن جمال الدين، المنهل الصافي المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

٩. ابن تغري بردي: أبو المحاسن يوسف بن جمال الدين، الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق: فيهم شلتوت، مركز إحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ٢٠١٢م.

١٠. ابن تيمية: أبو العباس أحمد بن عبد الحكيم الحراني، الرد على الاخنائي واستحباب زيارة خير البرية الزيارة الشرعية، اعتنى به ك فواز العوضي، مكتبة النهج الواضح، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٣٧ه / ٢٠١٦م

١١. ابن جبير: أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني الأندلسي، رحلة ابن جبير، دار بيروت للطباعة والنشر بيروت، الطبعة الأولى، (د. ت).

١٢. ابن جماعة: بدر الدين محمد بن إبراهيم سعد الله الكناني الشافعي، تذكر السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، تحقيق: محمد بن مهدي العجمي، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الثالثة، ١٤٣٣ه / ٢٠١٢م.

١٣. ابن حجر العسقلاني: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: حمد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، صيدر اباد، الهند، الطبعة الثانية، ١٣٩٢ه / ١٩٧٢م.

١٤. ابن حجر العسقلاني: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد، أنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق: حسن حبشي المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامية، مصر، ١٣٨٩ه / ١٩٦٩م.

١٥. ابن سحنون: أبو عبد الله محمد ببن عبد السلام سحنون التنوخي القيرواني آداب المعلمين، اعتنى به: محمد العروسي، مكتبة الفقه المالكي، تونس، ١٣٩٢ه / ١٩٧٢م.

١٦. ابن فهد: النجم عمر بن فهد بن محمد، إتحاف الورى، تحقيق: فهيم بشلتوت، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ه / ١٩٨٢م.

١٧. ابن فهد: جار الله بن العز بن النجم المكي، نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة اتحاف الورى، تحقيق: محمد الهيلة، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤٢٠هـ /٢٠٠٠م.

١٨. ابن فهد: عبد العزيز بن عمر القرشي، غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق: فهيم شلتوت مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٦ه / ١٩٨٦م.

١٩. ابن فهد: عمر بن فهد الهاشمي المكي، الدرر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: عبد الملك بن دهيش، دار خضر للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١ه / ٢٠٠٠م.

٢٠. ابن فهد: عمر بن فهد الهاشمي المكي، ذيل معجم الشيوخ، راجعه واعتنى به: محمد الجاسر، موسوعة مكة المكرمة، (د. ت).

٢١. ابن فهد: للعز عبد العزيز بن النجم بن فهد المكي، بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى تحقيق: صلاح الدين إبراهيم وآخرون، دار القاهرة، القاهرة، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م.

٢٢. ابن قاضي شهبة: أبو بكر تقي الدين بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدي الدمشقي، طبقات الشافعية تحقيق: الحافظ خان، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٢٣. ابن كثير: إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ١٤١٠ه / ١٩٩٠م.

٢٤. أبو الخير: عبد الله مراد، المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر، تحقيق: محمد العامودي وأحمد علي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، جدة، ١٤٠٦ه / ١٩٨٦م.

٢٥. أبو شامة: شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي الشافعي، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزيبق، الطبعة الأولى، ١٤١٨ه / ١٩٩٧م.

٢٦. الإدريسي: محمد بن محمد بن عبد الله الحسيني الشريف، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٢٢ه / ٢٠٠٢م.

٢٧. الألباني: أبو عبد الرحمن محمد بن ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥ه / ١٩٩٥م.

٢٨. الألوسي: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٢٩. أنور: شكري محمد، لوحان أثريان للسلطان قايتباي والسلطان سليمان القانوني، جامعة الملك عبد العزيز، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، ١٣٩٦م.

٣٠. أنور: زقلمة: المماليك في مصر، مكتبة مدلولي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.

٣١. باز: عبدالكريم بن علي، مؤرخو مكة المكرمة وكتاباتهم التأريخية في القرن التاسع الهجري، الجمعية التاريخية السعودية، الرياض، ١٤١٣ه / ١٩٩٣م.

٣٢. باسلامة: حسين عبد الله، تاريخ عمارة المسجد الحرام بما احتوى من مقام إبراهيم وبئر زمزم والمنبر وغير ذلك، مكتبة تهامة، جدة، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥ه / ١٩٨٤م.

٣٣. الباشا: حسن الألقاب الإسلامية في التأريخ والوثائق والآثار، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

٣٤. البتنونى: محمد لبيب، الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني، جمهورية مصر العربية القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٢٧ه / ١٩١١م.

٣٥. البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه المعروف بـــ: صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ه

٣٦. بدرشيني: أحمد بن هاشم، أوقاف الحرمين الشريفين في العصر المملوكي، مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ه / ٢٠٠٥م.

٣٧. البغدادي: إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين طبع بعناية: وكالة المعارف الجليلة، استانبول، ١٩٥١م.

٣٨. البلادي: عاتق بن غيث، معالم مكة التأريخية والاثرية، دار مكة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ه / ١٩٨٣م.

٣٩. البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي الخراساني، شعب الإيمان، تحقيق: عبد العلي حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣ م.

٤٠. جابر: عبد الحميد جابر، مناهج البحث في التربية وعلم النفس، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٧م

٤١. الجزيري: عبد القادر بن محمد الحنبلي، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة تحقيق: محمد إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢م.

٤٢. حاجي خليفة: مصطفى بن عبد الله القسطنطيني، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تحقيق: محمد شرف الدين، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٤١م.

٤٣. الحاكم: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ /١٩٩٠.

٤٤. الحجازي: شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي، كتاب تربية الأولاد، تحقيق: ماجد بن عبد الله الحازمي مجلة الجامعة الإسلامية، العدد (١٦١)، ١٤٣٣هـ.

٤٥. الحر العاملي: محمد بن الحسن، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، إيران، (د. ت).

٤٦. حسن: إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الرابعة عشر، ١٤١٦ه / ١٩٩٦م.

٤٧. حسين: جميل حرب، بلاد الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، رسالة دكتوراه، جامعة الإسكندرية جمهورية مصر العربية، ١٩٧٩م.

٤٨. حقي: إسماعيل، أشراف مكة المكرمة وأمراؤها، ترجمة: خليل مراد منشورات، مركز دراسات الخليج العربي، البصرة، ١٩٨٥م

٤٩. الحميري: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم، الروض المعطار في خير الأقطار، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م.

٥٠. الخزرجي: أبو الحسن علي بن الحسن بن أبي بكر الزبيدي، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية تحقيق: محمد الحوالي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ه /١٩٨٣م.

٥١. الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن مهدي، الفقيه والمتفقه، تحقيق: عادل الغرازي دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.

٥٢. الدمشقي: عبد القادر بن محمد النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

٥٣. الذهبي: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، العبر في خبر من غبر، تحقيق: محمد السعيد دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ه / ١٩٨٥م.

٥٤. الذهبي: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى، ١٤١٩ه / ١٩٩٨م.

٥٥. الذهبي: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، ذيل تاريخ الإسلام، تحقيق: عمر تدمري دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٠ه / ١٩٩٠م.

٥٦. الزحيلي: محمد، العز بن عبد السلام: سلطان العلماء وبائع الملوك الداعية المصلح.. ، دار القلم، دمشق الطبعة الأولى، ١٤١٢ه / ١٩٩٢م.

٥٧. الزركشي: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.

٥٨. الزركلي: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي الدمشقي، الأعلام، دار العلم للملايين، لبنان، بيروت الطبعة الخامسة عشر، ٢٠٠٢م.

٥٩. زغلول: علي حسن، مدرسة السلطان حسن، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، جمهورية مصر العربية، ١٩٧٧م.

٦٠. السباعي: أحمد، تاريخ مكة، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية الرياض، ١٤١٩ه / ١٩٩٩م.

٦١. السباعي: مكي بن نسيب، مكتبات المساجد دراسة تاريخية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية الرياض، ترجمة: هاشم سيد، ضمن سلسلة كتب مترجمة، (د. ت).

٦٢. السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، التبر المسبوك في ذيل السلوك، تحقيق: نجوى كامل، دار الكتب والوثائق القومية، جمهورية مصر العربية، القاهرة، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢م.

٦٣. السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تحقيق: بشار معروف وآخرين، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٦ه / ١٩٩٥م.

٦٤. السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، تحقيق: إبراهيم عبد المجيد، دار ابن حزم، ١٤١٩ه / ١٩٩٩م.

٦٥. السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت الطبعة الأولى، ١٤١٢ه / ١٩٩٢م.

٦٦. السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٤ه / ١٩٩٣م.

٦٧. السليمان: علي بن حسين، العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك، الشركة المتحدة للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، القاهرة، ١٣٩٣ه.

٦٨. السنجاري: علي بن تاج الدين بن تقي الدين، منائح الكرام في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، تحقيق: جميل المصري، مركز إحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤١٩ه / ١٩٩٨م.

٦٩. السنيدي: عبد العزيز بن راشد، المجاورون في مكة وأثرهم في الحياة العلمية، ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية، الخرج، ١٤٢٦ه.

٧٠. السير وليم موير: تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة: محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدلولي القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٥ه / ١٩٩٥م.

٧١. السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين، ذيل طبقات الحفاظ، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠١٠م.

٧٢. السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٣٩٤ه / ١٩٧٤م.

٧٣. السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين، الحاوي للفتاوى، تحقيق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١ه / ٢٠٠٠م.

٧٤. السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين، حُسْن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.

٧٥. السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين، نظم العقيان في أعيان الأعيان، تحقيق: فيليب حتى، دار الكتب الـعلمية، بيروت، لبنان، ١٩٢٧م.

٧٦. الشريف: فريال عبد المجيد، مكة المكرمة كما جاءت في كتب الرحالة المسلمين منذ القرن السادس الهجري حتى نهاية القرن التاسع الهجري، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠١ه / ١٩٨١م.

٧٧. الشكعة: مصطفى، منهاج التأليف عند العلماء العرب، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة عشر، ٢٠٠٤م.

٧٨. الشوكاني: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ٢٠١٢م.

٧٩. الشيخ: عبد الرحمن عبد الله، لود فيكودي فاريتما " الحاج يونس المصري الرحالة الإيطالي والعميل البرتقالي ورحلته إلى الأماكن المقدسة، مجلة جامعة الملك سعود، المجلد الرابع، الآداب (٢)، الرياض، ١٩٩٢م.

٨٠. شيخ الربوة: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الصوفي الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، تحقيق: فراين وميهرن، طبع في كوبنهاغن، ١٨٦٤م.

٨١. الصباغ: محمد بن أحمد بن سالم بن محمد المالكي المكي، تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام ومكة والحرم وولاتها الفخام، تحقيق: عبد الملك بن دهيش، مكتبة الأسدي، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ه / ٢٠٠٩م.

٨٢. الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠ه م ٢٠٠٠م.

٨٣. الطاسان: محمد بن صالح، التعليم في مكة في العهد المملوكي، مجلة جامعة الملك عبدالعزيز، الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد الثامن، ١٤١٥ه / ١٩٩٥م.

٨٤. الطبري: محمد بن علي بن فضل، ابن المحب، اتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن، مكتبة الحرم المكي الشريف، مكة المكرمة، رقم الحفظ (١٩٠٣).

٨٥. الطوسي: أبو جعفر محمد بن الحسين، تهذيب الأحكام في شرح المقنعة، تحقيق: السيد حسن الموسوي دار الكتب الإسلامية، طهران، الطبعة الثالثة، ١٣٦٤ه.

٨٦. عاشور: سعيد عبد الفتاح، العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٦م.

٨٧. عاشور: سعيد عبد الفتاح، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة طبعة جديدة مزيدة ومنقحة، ١٩٩٢م.

٨٨. العبدري: أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن علي المعروف بالحيحي، الرحلة المغربية، تقديم: سعيد بو فلاقه، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، ١٤٢٨ه / ٢٠٠٧م.

٨٩. عبد المنعم: صبحي، المجتمع الحجازي في عصر المماليك العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م

٩٠. العبيكان: طرفة بنت عبد العزيز، الحياة العلمية والاجتماعية في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤١٦ه.

٩١. العصامي: عبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي تحقيق: عادل الموجود، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

٩٢. عطية: سليمان، سياسة المماليك في البحر الأحمر حتى نهاية السلطان برسباي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٥٩م.

٩٣. العمايرة: خالد محمد سالم، موانى البحر الأحمر وأثرها في تجارة دولة المماليك، رسالة دكتورة، كلية الآداب، جامعة اليرموك، ٢٠٠٧م.

٩٤. الغازي: عبد الله المكي الحنفي، إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام، تحقيق: عبد الملك بن دهيش مكتبة الأسدي، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

٩٥. الغزي: محمد بن محمد نجم الدين، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، دار الكتب المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤١٨ه / ١٩٩٧م.

٩٦. الفاسي: أبو الطيب محمد بن أحمد الحسني المكي تقي الدين، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمد حامد الفقي وآخرون، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

٩٧. الفاسي: أبو الطيب محمد بن أحمد الحسني المكي تقي الدين، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام،

٩٨. الفعر: محمد فهد عبد الله، تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام حتى منتصف القرن السابع الهجري، رسالة ماجستير، جامعة الملك عبد العزيز، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

٩٩. فهمي: نعيم زكي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب جمهورية مصر العربية، القاهرة، ١٩٧٣م.

١٠٠. القابسي: أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري، الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، تحقيق: أحمد خالد، الشركة التونسية للتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

١٠١. القاضي عياض: أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي، كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ تحقيق: عامر الجزار، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.

١٠٢. القحطاني: راشد بن سعد، أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين، مكتبة الملك فهد الوطنية الرياض، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م

١٠٣. القلقشندي: أبو العباس أحمد، صبح الأعشى، دار الكتب المصرية ن القاهرة، ١٣٤٠هـ / ١٩٢٢م.

١٠٤. القمي: أبو جعفر محمد بن علي بن بابوية المعروف بـــ الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، أشرف على تصحيحه: حسين الأعلمي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م

١٠٥. الكتاني: محمد عَبْد الحَيّ بن عبد الكبير ابن محمد الحسني الإدريسي، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.

١٠٦. الكفوي: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريمي الحنفي، الكليات، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.

١٠٧. اللالكائي: أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة تحقيق: أحمد بن سعد الغامدي، دار طيبة، السعودية، الطبعة الثامنة، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م.

١٠٨. مالكي: سليمان عبد الغني، بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

١٠٩. الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد البصري البغدادي، الأحكام السلطانية، دار الحديث، القاهرة

١١٠.مراد: بركات محمد، ابن النفيس واتجاهات الطب العربي العلمية، الصدر لخدمات الطباعة، القاهرة ١٩٩٠م

١١١. معتوق: صالح يوسف علم الحديث في مكة خلال العصر المملوكي، رسالة دكتوراه، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٧هـ.

١١٢. معروف: ناجي، المدارس الشرابية ببغداد ووسط مكة، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٣٨٥ه / ١٩٦٥م

١١٣. المفيد: محمد بن محمد بن النعمان البغدادي، أحكام النساء، تحقيق: الشيخ مهدي نجف، المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد الطبعة الأولى. ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.

١١٤. المقري: أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطِيب من غُصن الأندلس الرّطيب، تحقيق: إحسان عباس دار صابر، الطبعة الأولى، ١٣٨٨ه / ١٩٦٨م.

١١٥. المقريزي: أحمد بن علي تقي الدين، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق: محمود الجليلي دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.

١١٦. المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر العبيد، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك تحقيق: جمال الدين الشيال، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م .

١١٧. المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر العبيد، السلوك لمعرفة الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧.

١١٨. الناصر: علي حسين السليمان، النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، (د. ت).

١١٩. النبهاني: يوسف إسماعيل، الشرف المؤبد لآل محمد ﷺ، مطبعة مصطفى الباني الحلبي، مصر الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ.

١٢٠. النهرواني: قطب الدين محمد بن أحمد بن محمد الحنفي، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام في تاريخ مكة المشرفة، تحقيق: هشام عطا، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، ١٩٩٦م.

١٢١. نواب: عواطف، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.

١٢٢. النووي: أبو زكريا يحي بن شرف الدين، التبيان في آداب حملة القرآن، تحقيق: محمد الحجار، دار ابن حزم الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.

١٢٣. النووي: محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف الدين، آداب العالم والمتعلم والمفتي والمستفتي وفضل طلب العلم، مكتبة الصحابة، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م.

١٢٤. النيسابوري: أبو الحسين مسلم بن حجاج القشيري، المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ المعروف بـــ صحيح مسلم، اعتنى به: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

١٢٥. هورخرونيه: ك. سنوك، موسوعة مكة المكرمة والمدينة المنورة، نقله إلى العربية: علي عودة الشيوخ مركز تاريخ مكة والمدينة، مكة المكرمة، الطبعة الثانية، ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م.

١٢٦. الهيلة: محمد الحبيب، التاريخ والمؤرخون بمكة من القرن الثالث الهجري إلى القرن الثالث عشر، مكتبة الفرقان للتراث الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

١٢٧.الوهيبي: عبد الله بن إبراهيم، العز بن عبد السلام: حياته وآثاره ومنهجه في التفسير، مكتبة المساهم، الرياض الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

١٢٨. اليافعي: أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ م ١٩٩٧م.

١٢٩. ياقوت الحموي: أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي، معجم البلدان، دار صابر، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ/ ١٩٩٣م.

١٣٠. اليمني: يحيى بن الحسين بن قاسم المؤيد، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق: عبد الله الحبشي دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٨م.